جوستاين غاردر

نحن الذين هنا الآن

فلسفة حياة

مكتبة

دار المنى

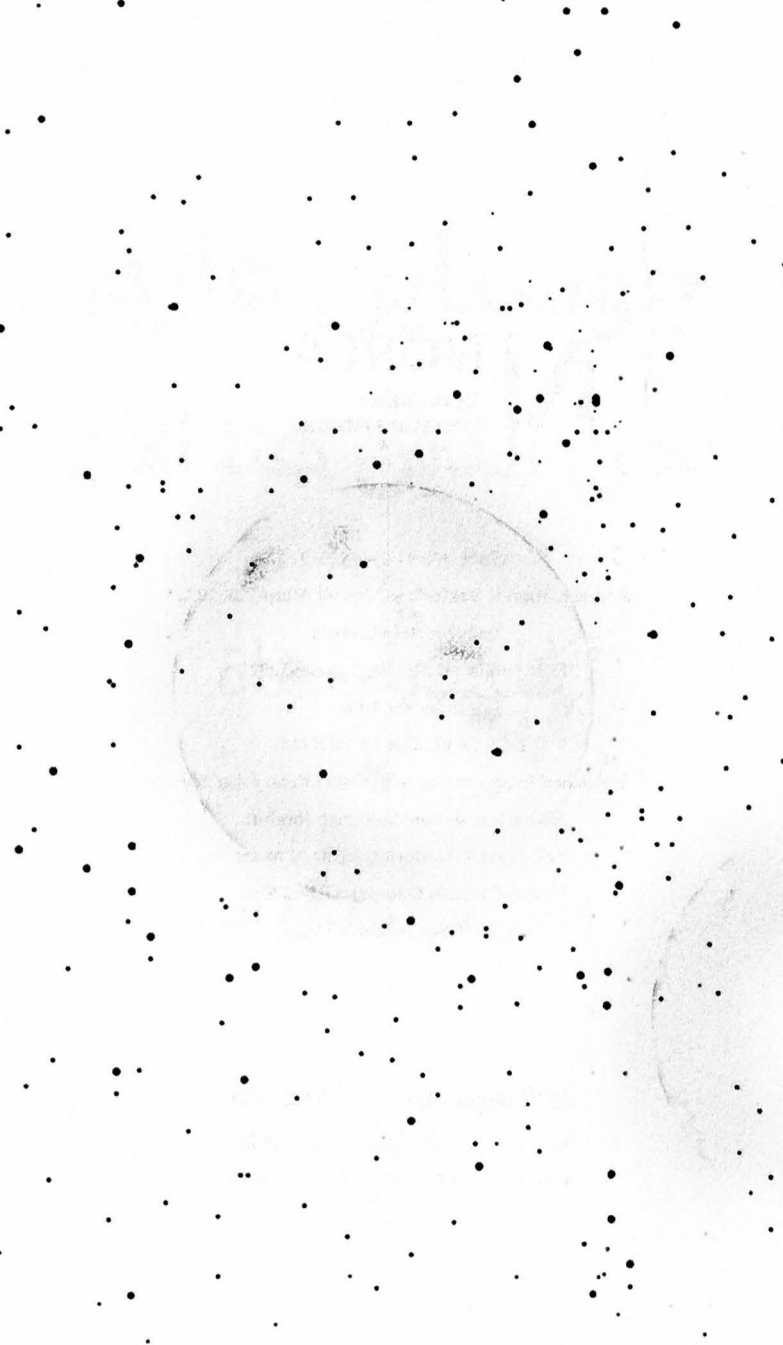

مكتبة
t.me/soramnqraa

جوستاين غاردر

نحن الذين هنا الآن

✳

فلسفة حياة

النص العربي: سكينة إبراهيم

دار المنى

مكتبة
t.me/soramnqraa

ISBN: 978 91 89464 33 9

Arabic edition © Bokförlaget Dar Al Muna AB, 2022

Text © Jostein Gaarder

First published by Kagge Forlag, 2021

under the title:

DET ER VI SOM ER HER NÅ

Published in agreement with Oslo Literary Agency

Arabic translation: Sukainah Ibrahim

Arabic text © Bokförlaget Dar Al Muna

Photo of Jostein Gaarder: Celina Øier

Typesetting: Joachim Trapp

Bokförlaget Dar Al-Muna AB

Box 127, 18205 Djursholm, Sweden

www.daralmuna.com

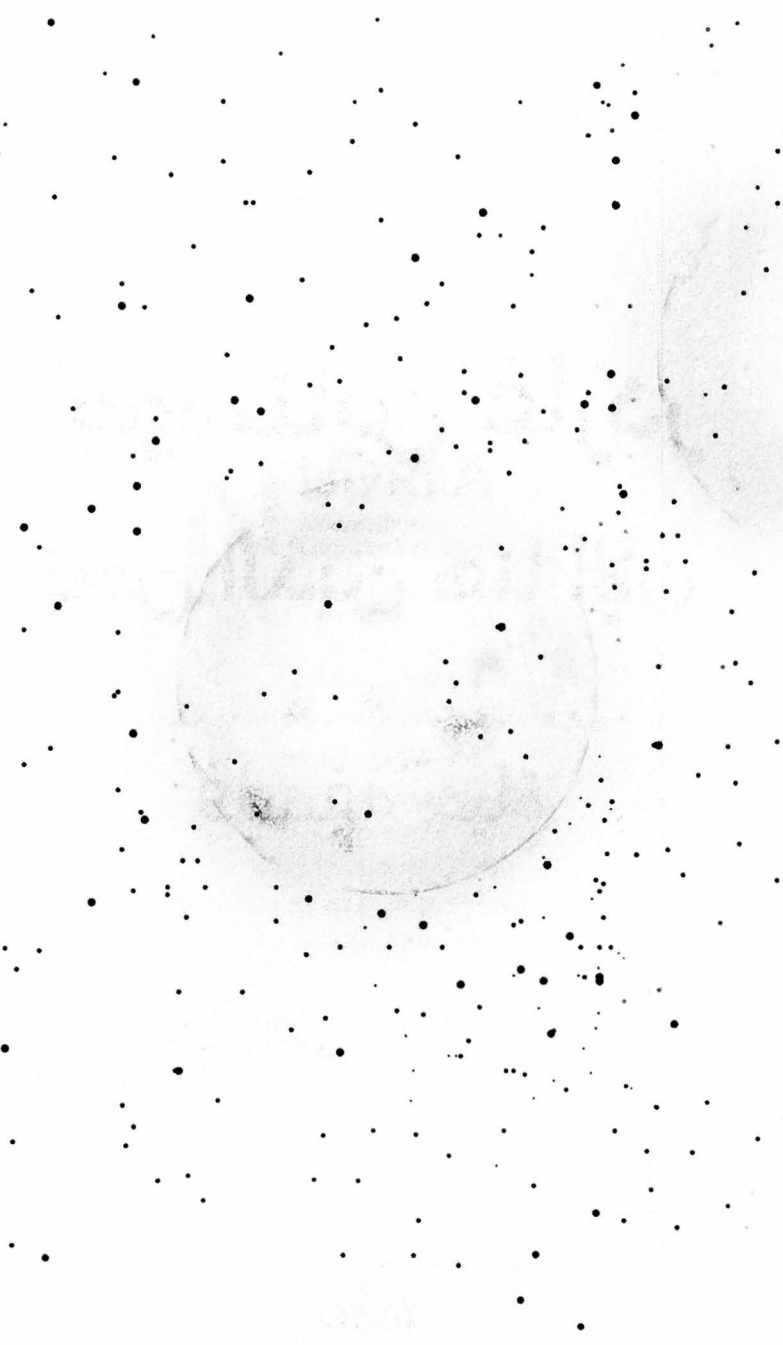

شكر

أودّ أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى آن
سفيردرب - ثايغسن، وداغ أو. هيسن،
وأويستن إلغاروي، الذين تفضلوا بقراءة
مخطوطة هذا الكتاب، وزودوني بتعليقات
حكيمة ودافئة وثاقبة.

ج. غ.

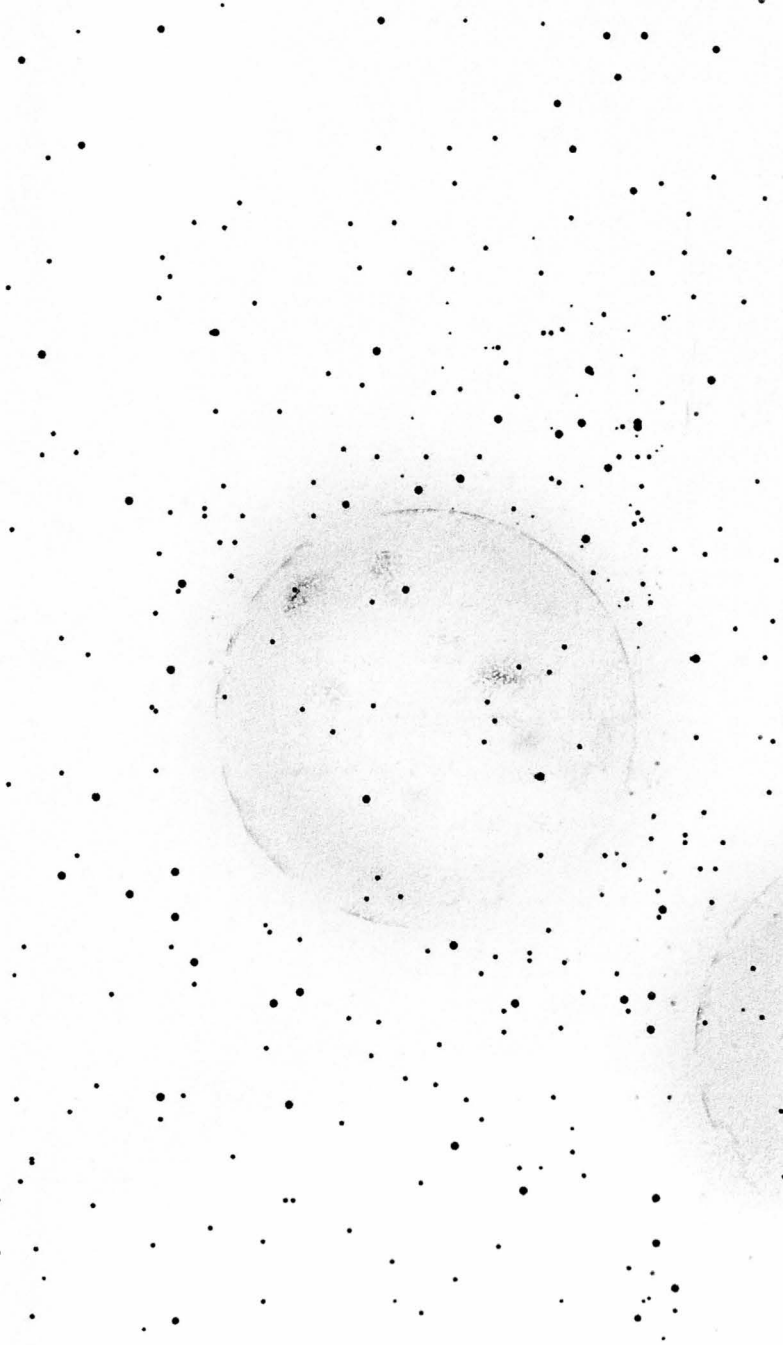

المحتويات

المقدّمة..... 8

عالم مسحور..... 14

خنافس..... 22

قارئ الأفكار..... 27

جَدّي..... 37

الباراسيكولوجي..... 43

علوم الغيب..... 50

كوكب الأرض..... 62

مقياس الزّمن..... 67

الزمان والمكان..... 75

الزمن الجيولوجي..... 85

الإشارات اللاسلكية..... 100

استدامة الكوكب..... 110

الأحافير البصرية..... 124

راتاتوسكر..... 134

مقوّم العِظام ورائد الفضاء..... 144

تسعة أدمغة..... 150

أسئلة في أوانها..... 164

وهج المساء..... 184

الأعزاء ليو، ولورا، وأورورا، ونوح، وألبا،
وجوليا، وماني،

مكتبة
t.me/soramnqraa

جلست أمام حاسوبي لأكتب رسالة لكم كلكم، وحاليًا، ثمة فراشات تتطاير في معدتي. فالتواصل معكم على هذا النحو يجعلني أشعر بالغرابة.

الخطّة هي أن ما أكتبه لكم سيصبح أيضًا كتابًا صغيرًا يمكن أن يقرأه أناس آخرون غيركم. ويمكن أن تطلقوا على نص كهذا - النص المتاح لأي شخص آخر، سواء كُتب أساسًا لشخص معيّن أو بضعة أشخاص مختارين - «رسالة مفتوحة.»

إنها ليست رسالة ستتسنى لكم قراءتها إلّا بعد أن تُطبع، على الرغم من أن هذا لا ينبغي أن يثير قلقكم، لأنني لن أخبر أحدًا عن هذا الكتاب قبل أن «يُنشر» كما يُقال، أي بعد أن يجعله الناشر متاحًا. لكنني أتطلع بشغف إلى وضعه بين يدي كل واحد منكم. هذا شيء سبق أن خطّطت له، وأتخيّل أنها ستكون لحظة احتفال لنا كلّنا، غير أنه سيتعيّن علينا أن نرى هل ستتسلمون رسالة جدكم كُلّا على حدة، أو هل نجعل منها مناسبة حقيقية ونحن مجتمعون معًا في أحد بيوتنا.

هذه ليست أول مرّة أكتب فيها رسالة أدبية. فأنا أستعمل هذا الشكل في العديد من كتبي، مع أنها في الغالب تكون موجّهة إلى أناس خياليين.

الاستثناء الوحيد كان رسالة من امرأة - رسالة كان من دواعي سروري تحريرها بنفسي - إلى أسقف وأب كنيسة مشهور، عاش في شمال أفريقيا قبل 1600 سنة. أردت أن أعطي هذه المرأة صوتًا، كما يُقال. كانت شخصًا حقيقيًا، نعرفها من اعترافات الأسقف المذكور آنفًا، ما عدا ذلك نحن لا نعرف الكثير عنها سوى أن أب الكنيسة طردها بعد كثير من السنوات التي عاشا خلالها معًا. بل إننا نجهل حتى ما كان اسمها، غير أنني دعوتها فلوريا أميليا.

بطبيعة الحال لم يقرأ الأسقف قطّ رسالة فلوريا، وبالنسبة لي أردت أن يحظى العديد من أتباعه الحاليين بهذه الفرصة. لذا عمدت في الكتاب إلى التلاعب بفكرة أنه في الواقع تسلّم رسالة من تلك المرأة الحزينة التي في يوم ما أحبها حبًا جمًا..

لقد وقع اختيار ذلك الأسقف على ما يناسبه. اختار السعي إلى حياة أبدية في الآخرة بدلًا من حبّ امرأة في حياته الدنيوية. بالنسبة إليه كان الهدفان متعارضين.

لعل أهمّ ما يمكن ملاحظته هو كيف أمكنه أن يضحي

بالكثير من حياته في هذا العالم، من أجل مجموعة معتقدات تنتمي إلى عالم آخر. إنه سؤال لم يفقد بعد أهميته تمامًا بعد أكثر من مئة وست عشرة سنة، وهو أيضًا أحد الأسئلة الفلسفية الكثيرة التي يدور حولها هذا الكتاب.

الجديد كل الجدّة بالنسبة لي هو كتابة رسالة مفتوحة لأناس حقيقيين هم أحياء اليوم. أنتم بأعمار مختلفة، تتراوح بين - وأنا أكتب هذا - بضعة أسابيع إلى الثامنة عشر تقريبًا. ثلاث بنات وثلاثة فتيان. لكن لديكم شيء مشترك واحد، وبهذا لا أعني فقط أن لديكم الجدّ نفسه. لا، لا، أنا أفكّر في أمر مختلف كليًا وأهم بكثير جدًا: أنتم كلكم ولدتم في القرن الحادي والعشرين، ومعظمكم، ربما أنتم الستة، ستعيشون خلال القرن الحادي والعشرين بأكمله، قبل، كما آمل، أن تتسنى لكم الفرصة - في سنوات خريفكم من العمر - إلقاءَ نظرة متفحّصة على القرن الثاني والعشرين.

أنا نفسي ولدت في منتصف القرن العشرين، ما يعني أن هذا الكتاب سيدقّق في فترة زمنية تزيد على 150 سنة. ولن أتردّد في قول إن هذه السنوات الـ 150 من المحتمل أن تكون من بين أكثر السنين حسمًا في وجود الإنسانية، ومعها أيضًا تاريخ كوكبنا.

لدي ما أخبركم به، إضافة إلى نبذة من وجهات النظر التي أودّ عرضها عليكم. وجهات نظر تتعلّق بالحياة؛ هي عن الحضارة الإنسانية وعالمنا الهشّ في الكون. آمل أن أقدمها كلّها لكم كأفكار أكثر تماسكًا إلى حدّ ما. وأيضًا سأحاول التركيز على موضوع واحد فقط في كلّ مرة.

هذا إلى جانب أنني سأطرح عليكم بعض الأسئلة على طول الطريق. قد لا أحصل أبدًا على أجوبة قسم منها، لكن في يوم ما ستكونون قادرين على الحصول على إجابات للعديد منها، إذا حدث وقرأتم هذا الرسالة (ثانية!) في فترة ما قرب نهاية القرن. إنما حينها يتحتم عليكم العزوف عن الإجابة علنًا لأن أجوبتكم لن تصلني مطلقًا، تمامًا مثل رسالة فلوريا التي لم يتح لها أن تصل إلى أسقف أفريقيا الشمالية.

يمكن أن يخاطب المرء أحفاده بسهولة، أو يخاطب الأجيال القادمة. لكن الذين سيأتون لاحقًا لن يتمكنوا أبدًا من الرجوع إلى الوراء ليردّوا عليه.

لتوضيح ما أعني، من المحتمل أن أطرح فورًا سؤالًا من هذا النّوع:

كيف يبدو العالم على مشارف نهاية القرن الحادي والعشرين؟

لعلّها فكرة جيدة أن أطرح هذا السؤال الآن - فخير البرّ

عاجله - إذ على الرغم من أن أحدًا لا يعرف الجواب فعلًا الآن، يعود الأمر في تحديد نوعية نهاية القرن الحادي والعشرين إلى أولئك الذين يعيشون اليوم. إنما لا بأس، فأنا أفترض أنه من المبالغة قولي «إن أمر تحديد نوعية نهاية القرن الحادي والعشرين يعود لأولئك الذين يعيشون اليوم».

نعم، وهو حتى افتراض قوي قليلًا نوعًا ما. بيد أنكم تفهمون ما أعني، وفي وقت ما مستقبلًا ستحصلون على فرصة أخرى لتفكّروا في سبب صياغة جدّكم كلماته على هذا النحو.

بما أن أعماركم مختلفة، طبعًا قد يكون على أصغركم الانتظار بضع سنوات قبل قراءة هذه الرسالة. لذا أنا الآن أخاطب أحفادي البالغين بدايةً، وبكلمة بالغ أعني الذين بعمر 16 - 17 سنة منكم، وهذا يعني أن أورورا وليو هما الآن كبيران بما يكفي ليتتبعا جدول الأفكار التي يهمّ الجدّ بعرضها، أو على الأقل فقرات عديدة منها. (مع ذلك قد تريدان أن تكون بين أيديكما موسوعة جاهزة شاملة في الإنترنت لأنني بلا شكّ سأستعمل بضع كلمات ومصطلحات غير مألوفة.) في الوقت نفسه لدي أمل في أن يُقرأ هذا الكتاب عدّة مرات بينما تتقدّم بكم السّن حيث ستكتسبون مزيدًا من خبرات الحياة. وهذا يخصّ بالقدر

نفسه نوح وألبا وجوليا، وكذلك يخصك أنت أيضًا يا ماني الصّغير. أهلًا بك في الدنيا! وها أنا الساعة أتخيلكم كلكم وأنا أكتب.

عندي ستّة وجوه صغيرة أتحدّث إليها. يا لها من فرصة، ويا له من امتياز! ستة من شباب العالم!

عالم مسحور

نشأت في ما كان مرّة ضاحية عصرية زاهية. هي منطقة دُعيت تونسنهاغن، وعندما انتقلنا إلى هناك كنت بعمر ثلاث أو أربع سنوات. عشت في تونسنهاغن مدّة عشرة أعوام تقريبًا، وذكرياتي عن سنوات الطفولة في تلك الضاحية هي سلسلة من صور واضحة لكن متفككة، مثل شذرات في نهاية مشكال طويل معتم.

وهنا سأصف إحدى هذه الشذرات الأكثر وضوحًا، والتي ما زالت عالقة في ذاكرتي.

مرّة، في منتصف النهار، يوم الأحد ربما، صحوت فجأة ورأيت العالم للمرّة الأولى على الإطلاق. بدا ذلك كما لو أنني فتحت عيني على عالم السحر. تغريد الطيور بوقع يشبه زغردة المزامير. أطفال يلعبون في الشوارع بأسلوب راقٍ تقريبًا. كان ذلك كلّه حكاية خيالية ومدهشة. وهناك أقف، وسط سرّ عميق وسحيق، يغلّف لغزًا ليس بوسع أحد تخيّله، كأنني اقتحمت واقعًا آخر، فقاعة أخرى، مع لمحة من حكايات

بياض الثلج وسندريلا وربونزل وذات الرداء الأحمر.

السحر بحدّ ذاته دام ثواني قليلة فقط، مشحونًا بكهرباء الغموض، أما شعور الصدمة الحلو فبقي في جسدي، ولم يفارقني منذ ذاك الحين.

في تلك الثواني المعدودة نفسها، أدركت لأول مرة على الإطلاق أنني سأموت في يوم ما. وهذا ليس إلّا ثمن وجودي هنا.

كنت في قلب الحكاية الخيالية، وبدا ذلك رائعًا، كما لو أن أمنية هائلة قد تحقّقت. غير أنني عرفت أنني مجرد زائر. والتفكير في هذا - التفكير في أنني لا أنتمي إلى هنا، وليس لدي ارتباط دائم بهذا المكان - كان لا يطاق.

كنت أمتلك ارتباطًا رخوًا بالعالم، ارتباطًا يدوم طالما أنا فيه.

هذا الذي أنا فيه هنا ليس مقرّي. الأشياء الوحيدة التي تنتمي إلى هذا العالم هي الأطفال الصّغار الذين يشبهون العفاريت.

أدركت أنني وحدي في العالم، كما يكون المرء وحده في حلم. عندما يزور الآخرون حلمه - بصفتهم ضيوف شرف فيه - نبقى

بالقدر نفسه متروكين لأنفسنا. الأرواح لا تتدفق معًا. هي فقط تتدفق مجتمعة.

بعض تلك المسافة المخدّرة بيني وبين الناس الآخرين بقيت حاضرة في نفسي حتى بعد أن صحوت. ومع ذلك: كان لا بدّ من أن أخبر شخصًا ما، عما اختبرته.

لم أستطع إقحام رفاقي في ذلك كله. إذ كيف لي أن أوضحه لهم؟

في طريقنا إلى المدرسة نتحدث عن يوري غاغارين - الذي كان في الفضاء! - عن الخيول في حلبة السباق المجاورة، أو عن الألعاب الأولمبية الشتوية في إنسبرك... وأننا لو امتلكنا عدّاد غايغر، لعثرنا على أطنان من اليورانيوم وأصبحنا في غاية الثراء... فإذا تعطلت سيارة الروز رويس التي تخصّنا، ستصل في الحال مروحية على متنها ميكانيكي ليصلح السيارة الفاخرة فورًا...

لم أستطع إقحام هؤلاء الصبيان بمدى «غرابة» فكرة أنني على قيد الحياة، أو أن صبيًا معافى في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من العمر، يخاف من الموت. ذاك سيكون خرقًا للمصطلحات الراسخة التي استخدمناها، المعتمدة على شكل من أشكال التّوقعات. لم يكن ممكنًا أن أتطرق أمامهم إلى أي هراء كذاك!

لذا قصدت أساتذتي وأهلي. فهم حتمًا لديهم فهم أعمق لأمور الحياة والموت. فقد كانوا راشدين.

طرحت عليهم سؤال التحدّي. «أليس من العجيب أننا أحياء؟» استفسرتُ. «أليس من الغريب أن العالم موجود؟ أو أن لأي شيء وجود؟»

لكنّهم كانوا أكثر خواء من الأطفال. أكثر خواء مما شعرت به في أدنى الأحوال. لا بدّ من أن هذا بسبب أنه شيء قد قرروا التغافل عنه.

اكتفوا فقط بالنّظر إلي، كما لو أنني أنا ذلك الغريب العجيب.

لماذا لم يقولوا نعم فقط؟ ربما أمكنهم القول، «نعم، عجيب جدًا التّفكير في أننا أحياء،» بل ربما حتى أمكنهم الاعتراف أن ذلك غامض نوعًا ما. جنوني قليلًا، أو جنوني كليًا! لكن بدا عليهم كأنهم شعروا بالقلق فحسب لاضطرارهم إلى التعامل مع الأسئلة التي طرحتُ. لعلهم خافوا مما قد أسألهم عنه بعد ذلك. تلفتوا حواليهم بعصبية وأشاحوا بعيونهم تجاه ناحية أخرى. وما اختبرته كان مدمّرًا، لأنني قد اكتشفت العالم!

في بادئ الأمر شعرت بحيرة كبيرة، بالحمق ربما. أتراهم وجدوني مزعجًا؟ لعلّ هناك ما غفلت عنه، أو لم أفهمه. شيء

عن الموت ربما، إذ ما الذي عرفته آنذاك على أي حال؟

أو هل الأمر ببساطة أن الراشدين لم يرغبوا في التحدّث عن العالم؟

عن وجود شيء ما! عن أن شيئًا صدف أن وُجِد!

بالنسبة إلى تلك المسألة، لم يكن هناك ما يمكن قوله.

أخذ هذا مجراه في أوائل 1960، وربما حينما بدأ معظم البالغين يتساءلون ما إذا كان الله العظيم قد خلق حقًّا السماء والأرض في ستة أيام.

سبق لي أن عرفت هذه القصة المؤثرة جيّدًا، أُطلِعنا عليها في المدرسة. وتحتّم علينا أن ندرس ذلك كله في واجب بيتي، أو على الأقل فعلنا ذلك في مناسبة واحدة، تحاشيًا لخطر حقيقي من امتحاننا عنه في اليوم التالي. لكن أيًا من الراشدين لم يأت على ذكره الآن.

ما استفسرتُ عنه لا علاقة له بموضوع المعرفة المسيحية أو الدراسات المحلية، ولا حتى الجغرافيا. كان ببساطة من غير الملائم أن أسأل، مثل الإصرار على معرفة جواب كيف يُصنع الأطفال، وكيف يشرعون في التلوي وحدهم تمامًا في بطون أمهاتهم. ذاك سؤال سبق أن انتهيت من تمحيصه.

كنت قد اهتديت إلى كتاب مصوّر وراء كتب أخرى على أحد الرّفوف، ومنذ ذلك الوقت أدركت أن الأطفال الجدد يصنعون باستمرار في أرحام أمهاتهم، ولسبب ممنوع الذّكر. تلك في الواقع كانت طريقة العالم، ولا يستطيع المرء فعل شيء حيالها. ما عليه إلّا أن يتجنّب الكشف عما يحدث بالضبط للأطفال - فهم ليسوا بحاجة إلى أن يعرفوا تفاصيل هذا المشهد بأنفسهم - لأن الأطفال لا يملكون القدرة على تحمل خزي آبائهم، وأنا لم أكن استثناء عن القاعدة. في الحقيقة أنا لم أستعِد قط ذلك الارتباط اليومي المطمئن الذي كان لدي مرة، كلما رأيت أمًا تجر عربة أطفال بعد تصفحي لذلك الكتاب.

أمّا هذا - من أين يأتي العالم؟ - فكان بطريقة ما موضوعًا أشد إحراجًا من أن يُناقش مع أمي وأبي في غرفة الجلوس أو المطبخ في وضح النهار. مكتبة سُر مَن قرأ

قد أرفع عيني نحوهما وأضيف، شبه متوسّل: «في هذه الحال تريان إذًا أن وضع العالم عادي تمامًا؟»

وهذا سيجلب المسألة إلى خاتمتها. نعم، العالم عادي، عليَ أن أطمئن، طبعًا هو كذلك، عادي تمامًا.

وربما يُقال لي ذلك بنبرة حادّة بعض الشيء، متبوعة بـ: «يجب ألّا تشغل بالك كثيرًا بهذا النوع من الأمور.»

هذا النوع من الأمور؟

بدا لي أنني فهمت ما عنياه. اعتقدا أنني قد أصيب نفسي بالجنون إذا أعملتُ فكري كثيرًا بموضوع كيف أن العالم ليس عاديًا.

آمن الأهل والأساتذة بوضوح لا شكّ فيه أن العالم - نعم العالم! - هو بشكل أساسي عادي جدًا. هذا على الأقلّ ما قالوه. أما أنا فعرفت أنهم إن لم يكذبوا، فهم في أدنى الأحوال مخطئون!

عرفت أنني كنت على صواب، وقرّرت أن لا أكبر في السّن أبدًا. وعدت نفسي ألّا أكون شخصًا يعتبر العالم أمرًا مسلّمًا به.

بعد عديد من السنوات شاهدت فيلمًا لـ «ستيفن سبيلبرغ» بعنوان لقاءات قريبة من النوع الثالث.

المنطق وراء العنوان يشير إلى أن الشخص الذي يرى جسمًا غريبًا في السماء يكون قد اختبر لقاء قريبًا من النوع الأول. أي شخص يرى دليلًا ماديًا على زيارة مخلوق فضائي يكون قد اختبر لقاء قريبًا من النوع الثاني. وأي شخص محظوظ بما يكفي - أو سيئ الحظ - ليجد نفسه في تقارب جسدي مع

مخلوق فضائي، سيكون قد اختبر النوع الثالث من اللقاء. لا بأس! وماذا في ذلك؟

حينما غادرت دار السينما في تلك الليلة، بدا لي أن حتى النوع الأخير من تلك اللقاءات ليس شيئًا يستحق التبجح به، لأنني اختبرت لقاءً قريبًا من النوع الرابع.

أنا كنت أحد تلك المخلوقات الفضائية، والتفكير في هذا جعل القشعريرة تسري في جسدي بأكمله.

منذ ذلك الحين فكّرت في الموضوع خلال العديد من الأوقات. كلّ صباح أستيقظ ومعي مخلوق فضائي في سريري، والمخلوق الفضائي ليس إلّا أنا!

خنافس

في سن المراهقة، واجهت نوعًا مختلفًا أيّما اختلاف من الخبرة. كنت وحدي، في أعماق الغابة، خلال أوائل فصل الخريف، وما زلت أتذكّر ثمار شجر الغبيراء، والخلنج البارد، وعناقيد شجيرات العنّاب.

حدث أن استيقظت وأنا مستلقٍ على الخلنج في كيس نوم أخضر، درجتُ على استخدامه في جميع رحلاتي مع الكشافة على الرغم من أن تلك الحقبة قد ولّت.

ما سبب وجودي هناك؟ نعم، كان لدي ما يعتمل في ذهني، ذاك هو، شيء ثقيل، فانطلقت سيرًا إلى الغابة، حيث انتهى بي المطاف إلى الاستلقاء أخيرًا لأنام تحت سماء مفتوحة.

غير أنني لم أستطع رؤية أي سماء في الأعلى عندما استيقظت. إذ حطّ ضباب كثيف على الغابة، ملامسًا قمم الأشجار فقط، فمكثت حيث أنا في الشّفق أتفحّص النّمل والعناكب والخنافس على أرض الغابة أسفل مني، كانت تلك المخلوقات المنمنمة مفعمة بالحياة والطاقة.

حينذاك سرى فجأة في جسدي وروحي شعور بأنني أنا الطبيعة، تمامًا مثل الحشرات المجهرية التي تزحف في الخلنج والطحالب. وسرعان ما راودتني فكرة أكثر عمقًا: أنني مكوّن من الجزيئات نفسها مثل جميع أشكال الحياة الأخرى من حولي. التصنيف مختلف حتمًا، أما الأهمية فمتطابقة تمامًا.

لم أكن أقوم بزيارة عابرة للعالم، كما لو أنني أتسكع لفترة وجيزة في قلب حكاية خيالية مخدِّرة. بل كنت في عنصري الكيميائي الذي يخصّني، مثل أي سمكة في الماء، أو عنكبوت في الخلنج.

كنت في بيتي، في عالمي الخاص، لأنني أنتمي إلى هذا العالم، كنت هذا العالم. وسأظل كذلك حتى عندما يفنى جسدي في يوم ما.

حطّت عليّ سكينة يكاد يتعذّر وصفها، شعور بالسلام، لا علاقة له بالراحة لأن نومي في الواقع كان مقلقلًا. لكن للحظة وجيزة أو لحظتين استسلمت نوعًا ما وسلّمت نفسي لشيء آخر، لشيء أعظم وأكثر دفئًا. أو في أدنى الأحوال ذبت في هذا الشيء الآخر، سمحت لنفسي أن تسمح له بامتصاصي. شعرت كأنني أختبر تحوّلًا روحيًا بيني وبين ذلك كله، نقل

هوّية، أو ربما من الدّقة القول إن ما حدث كان لمَّ شملٍ: أعدتُ جزءًا من نفسي إلى الطبيعة.

لم تستمر تلك الحالة بحدّ ذاتها سوى بضع ثوان، لكنها دامت في داخلي. دامت بما يكفي لي لأتأمل ما حولي وأميّز بطريقة ما جذوع أشجار البتولا البيضاء التي أحاطت فسحة الغابة الصّغيرة حيث أقمت مخيمي. كانت جذوع تلك الأشجار لي. وكانت أنا أيضًا. وتملكني شعور قرابة مبهم مع الحشرات المنمنمة الزاحفة على أرض الغابة. إمكانية اختبار العلاقة الخفية بين خنفساء وبيني اعتمدت كليًا على مدى العمق الذي كنت على استعداد للغوص فيه.

للحظات قليلة تواصلت مع طبقة أعمق من الطبيعة ومن نفسي، أو مع شيء سأفكر فيه لعديد من السنين لاحقًا على أنه «بدائي.»

بعدئذٍ رجعت إلى كيس نومي. انزلقت ثانية في وجودي الفردي الخاص.

وشعرت بالبرد. كنت أتجمّد من البرد.

وماذا في ذلك؟ أكانت تجربتي في ذلك الصباح نتيجة ممارسة

حواسي الحيل علي؟ أتراها تأثرت بشيء حلمت به وأنا مضطجع في الخلنج؟ أم أنها في الحقيقة تقول شيئًا عني وعن العالم؟

يواجه الناس أمورًا كثيرة جدًا. بعضهم يقول إنه شعر بحضور الله – أو أن الله أو أحد الأسلاف قد تحدث إليه. أنا لم أختبر بنفسي تجربة كتلك.

إن ما مررتُ به في ذلك الصباح يمكن على الأرجح أن يصمد أمام أكبر قدر من التدقيق للفهم العميق بعد حدوثه. إذ أليس الشعور بالفردية شبه اللاهثة شعورًا قسريًا – أو مفتعلًا – مثل الشعور المتنامي غير المقيّد بالوحدة مع كل شيء، أو حتى ليس كذلك: بل الشعور بالكينونة فحسب.

ولن أكفّ عن مواصلة التفكّر في مثل هذه التساؤلات لسنوات.

في الغابة ذلك الصباح، كان لي دور سلبي واضح. فجأة نُقلتُ إلى حالة أخرى من الوعي. هكذا ببساطة! ثم – بتلك البساطة – انتهى الأمر!

وعندما عدت بفكري إلى ذلك اليوم، أدهشني أن هذا الانتقال يمكن أن يحدث أيضًا بطريقة متعمّدة وأكثر حيوية.

يمكنني في أي وقت اختيار شراع أكبر وأتقبل ما هو أكثر مما أراه عادة بصفتي أنا وبصفته لي. بوسعي - ولو للحظات على الأقلّ في المرّة الواحدة - القيام بقفزة فكرية متحرّرة من القيود.

يومها لم أكن في الطبيعة فقط. كنت أنا الطبيعة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

قبل بلوغي سن الرشد المناسبة، تعرّضت إلى تجربتين قويتين ومتناقضتين في الوقت نفسه: أولًا تملّكني شعور لطيف ولكن مرير لأنني لست إلّا في زيارة خاطفة لعالم مسحور، ثم بعد سنوات قليلة شعوري بأنني أمثّل شيئًا أكبر بكثير وأشد متانة من نفسي.

تجارب مماثلة جاءت وذهبت. وفي حال أردت التوصّل إلى استنباط مبكر - فأي واحد من هذين الشعورين أرى أنه لدي الآن؟ ليس من السّهل القول. القليل منهما ربما. أو ربما الكثير منهما.

إن حياة المرء قصيرة، بالمقارنة مع الوقت كلّه الذي لن نكون فيه هنا في هذا العالم حقيقة. إذا كانت الحياة ذات قيمة غير محدودة، فإن خسارة نصيبنا المحدود منها لا يمكن تعويضه. مجرد التفكير في هذا يمكن أن يُشعر المرء كأنه يغرق، كأنه يهوي تحت وطأة تيار رجعي هائل الثّقل.

لكنّنا لسنا فقط أنفسنا. جميعنا، كل واحد فينا هو في الوقت نفسه يمثّل البشرية جمعاء، والكوكب الذي نعيش فيه.

وهذا يؤدي إلى التساؤل: ماذا سيحلّ بالإنسانية؟ ماذا سيحصل لكوكبنا؟

لن ألبث أن أعود إلى وجهات النظر هذه. ما أبحث عنه هو الشيء الذي يربطنا معًا، شيء يوحّدنا. وهو دافعي إلى الكتابة.

لطالما استمتعت بالمشي مسافات طويلة في الغابة، خصوصًا عندما تعترضني مشكلة أحتاج إلى حلّها. خلال الفترات المزدحمة بالعمل، كنت أحيانًا أتخلّى عن متابعة نزهتي وأهرول عائدًا إلى البيت، لأنني ببساطة حللت المشكلة وأنا في منتصف الطريق.

وأنا أتسكّع بين الأشجار، أجد نفسي في بعض الأوقات أنظر إلى بيت من بيوت النمل، في حالة أقرب إلى الغيبوبة، وأحاول في تلك الآونة التركيز على نملة واحدة. وهذا لم يكن سهلًا قطّ لأن النملة المختارة لن تكفّ عن الانطلاق هنا وهناك بين كرّ وفرّ واندفاع، قبل أن تختفي بطبيعة الحال وسط حشد من أترابها. عندئذ اضطر إلى اختيار مرشح جديد وأبدأ عملية المراقبة الدقيقة مرة أخرى. وكنت أنجح في الإبقاء على هذا الإجراء بعض الوقت.

حاولت أيضًا فعل عكس ذلك ؛ أي تركيز انتباهي كله على بيت النمل نفسه بدلًا من نملة واحدة. هذا كذلك كان تمرينًا

صعبًا. فبيت النمل تحتله آلاف المخلوقات الصغيرة المجتهدة، يتشارك بعضها مع بعض بتفاعل معقد. وتجاهل هذه الحشرات النشيطة، لصالح بيت النمل ككل، لا بدّ من أن يُدعى خداعًا بصريًا.

لعل الحلّ الوسط هو اعتبار النملة الواحدة كخلية حيّة ضمن كائن حي متعدّد الخلايا. ذاك أيضًا يجانب الصّواب، بما أن أي نملة فردية ليست بالتحديد خلية في داخل كائن حي واحد، هذا مع كونها - على الأقل - فردًا بوسعه مغادرة بيت النمل والانطلاق نحو الطريق.

تبدو بيوت النمل منظّمة على نحو جيّد جدًا، وغالبًا ما تساءلت كيف تستطيع هذه المخلوقات الصغيرة للغاية تدبّر أمر تواصل بعضها مع بعض، أو مع بيت النمل، المركز الأساسي، الذي منه تنطلق و(تقريبًا) تعود إليه دائمًا.

هذا التصوّر لبيت النمل يمكن أن نطبقه بسهولة على سكان أي مدينة، أو، في هذا الصدد، على سكان العالم بأسره.

هل الجنس البشري مجرد خليط من مشاركين منفصلين كليًا؟ أو هل نحن متصلون إلى حدّ ما بروابط غير مرئية؟

مرّة أخرى، وجدت نفسي بين الأشجار الباسقة. حينذاك

سلكت طريقي على طول درب ضيق يتبع قرقرة جدول عبر واد صغير تكسوه أعشاب غزيرة. كانت منطقة طبيعية متموجة التضاريس لم يسبق لي أن وطئتها من قبل.

في بعض الأحيان تأتيني أفكار جديدة في مثل هذه الأماكن. لكن في هذه المناسبة مشيت وأنا أفكر في حقيقة أنني كنت أفكر فعلًا. كيف يكون التفكير ممكنًا؟ ما كنه ذلك، في الواقع، الذي يتوهج بالشّرر بين الخلايا العصبية في رأسي؟ مئات مليارات الخلايا العصبية تلك!

ثم مرّ رجل قربي، رجل طويل جدًا، شبه عملاق، نظر إليّ مائل الرأس بطريقة فضولية. وبعد ذلك قال شيئًا لا يمكن اعتباره إلّا تعليقًا على ما يدور في رأسي من أفكار.

قال: «هناك حوالي مئة مليار نجم في مجرّة درب التبانة.»

قفزت وحدّقت في عينين عميقتي الزرقة، وشعرت أن الرجل الطويل عاد إلى تفحّصي من جديد، أو أيًا ما كان ذاك الذي يفعله. ثم أردف:

«غير أن مجرّة درب التّبانة هي طبعًا مجرّد الاسم المحلي لواحدة من مئة مليار مجرّة في الكون».

ندّت عنه إيماءة رأس سريعة، ثم انطلق إلى الأمام على الدرب بسرعة واختفى بين الأشجار.

صُدمت. ولم يساورني أي شكّ بهذا الذي رأيته. لأول مرّة في حياتي قابلت قارئًا للأفكار! وبدا الأمر كما لو أن هذا الشخص الغريب قد تواصل معي ليثبت لي ذلك بالضبط ؛ ليثبت لي أنه هناك، في داخل رأسي.

لم أجد في هذا ما يزعج البتة، كان ذلك لطيفًا، وقد غمرني بفرح عظيم.

في لحظة واحدة تغيّر كل شيء. إنني على عتبة عصر جديد، حقبة جديدة من التفكير والأفكار.

أدركت أنني لست مجرد لحم ودم، بل أنا أيضًا جزء من شيء آخر وأكثر من شيء، إنه مجتمع من الأرواح. ويا له من انتصار!

لن أنسى تلك الثواني أبدًا. غمرتني سعادة عظيمة! ثم بعد لحظة صحوتُ. اكتشفت أن لقائي مع الرجل الغامض ليس إلّا مجرّد حلم.

ما عدا أنه بطريقة ما كان في داخل رأسي، وقد تمكّن من فعل ذلك.

استلقيت هناك محدقًا إلى الأعلى في السقف غير المستوي، مفتونًا ومتحمسًا، وفي الوقت نفسه مخذولًا ومحبطًا.

كان رأسي مثل ثقب أسود. انهارت أفكاري كلّها وتهاوت.

إذ لا شيء يمكن أن يفلت من محيط دماغي، ليس بما يتعدى الحلم.

وقلت لنفسي إن الأفكار لا ترفرف بحرية بين الأرواح. هذه ليست الطريقة التي خُلق بها العالم.

*

والآن يا أحبابي، ليو وأورورا ونوح وألبا وجوليا وماني، لعلي خدعتكم بقصة قارئ الأفكار التي لم تتعد كونها حلمًا. بيد أنني لا أشعر بذنب شديد، فقد رويت لكم تجربتي كما حدثت.

حلمت بمقابلة رجل طويل على درب، وأنه علّق على شيء ما برحتُ أفكر فيه. لكن ما أنجزه معي لم يكن مثيرًا للإعجاب كما بدا لي في أول الأمر. لقاؤنا الروحي أخذ مجراه في حلم، حلمي أنا، حيث ظهر فيه الرجل الطويل بصفته ضيفًا فقط.

أنا بشكل أساسي من قرأ أفكاره، وليس العكس. في اللاوعي صنعت خيالًا لا شعوريًا حيث تظاهرت بالسماح لـ «قارئ الأفكار» أن يقرأ ما يجول في ذهني. وبذلك خدعت

نفسي، لأنني في الحقيقة قرأت أفكاري أنا. لم يكن هناك اثنان منّا في الحلم - كنا ببساطة وراء سِتارة الحلم، في داخل ستارة مخيلتي.

يجدر بي التأكيد الآن أن هذا التفسير السّخيف يجب ألّا يثبط من عزيمة مزاجنا. ما زال الوعي البشري - في كوكب يقع في ذراع حلزوني لمجرّة درب التبانة - أكبر لغز في الكون. وعدد الخلايا العصبية في دماغ الإنسان يساوي عدد النجوم في مجرّة درب التبانة!

وللتوضيح فقط: لا أستطيع أن أتذكّر اختبار أي نوع من تناقل الأفكار في عالم اليقظة، لم يحدث هذا قطّ خلال السنوات العديدة التي عشتها، أو مع العديد من الأشخاص المختلفين الذين قابلتهم.

أنا على سبيل المثال، لم أجلس بعد في قطار أو طائرة، وأسمع زميلًا مسافرًا يقول لي إنه هو أو هي عرف ما أفكّر فيه. (تخيلوا كم سيكون هذا مزعجًا، أن يُحاط المرء بأناس يعرفون دائمًا ما يجول في ذهنه!)

سبق لي أن كنت في الجانب الآخر من العالم مرّتين عندما طرأ شيء مأساوي للغاية في وطني النرويج، سواء في الأسرة

أو على المستوى الوطني، إنما لم يحدث قط أن أُعلِمتُ بهذه الحوادث عن طريق التخاطر.

وأيضًا شاركت جدّتكم طاولة وسريرًا منذ ما يقرب من عشرين سنة - وهي تلاحظ بسرعة ما إذا كنت مستغرقًا في أفكاري. بل أحيانًا يمكنها أن تخمّن أهي أفكار سعيدة أو حزينة. غير أنها لم تقدر مطلقًا على «قراءة» ما تدور حوله تلك الأفكار على وجه التحديد. وبقدر ما أعرف لم نتشارك قطّ أي حلم.

وإذا كان نقل الأفكار موجودًا حقًا: كيف سيتعامل مراقبو الامتحانات مع الطلاب الذين يغشون عن طريق توارد الخواطر ويتحكمون بهم؟ لا قانون هناك ينص على أن المرشح يجب أن يوقف تشغيل أجهزة التخاطر كلها طول فترة الامتحان.

في الوقت نفسه أود أن أوضح الآن كيف يمكن أن يكون شكل من أشكال التخاطر ظاهرة حقيقية، من دون أن تتعارض بالضرورة مع أي قوانين أساسية للطبيعة.

لو أن العالم الطبيعي مختلف قليلًا، والأدمغة البشرية، أو على الأقل أدمغة بعض الأشخاص، قادرة في حالات نادرة على العمل مثل جهاز إرسال لاسلكي - حتى لو عملت فقط

ضمن علاقات وثيقة – لن يعني ذلك إلغاء الشروط المُسبقة للعلم، أو الانحراف عن النظرة العلمية للعالم. في هذه الحال من الممكن التحقيق في هذه الظاهرة عن كثب، وتحليلها بدقة، وقبولها ظاهرة طبيعية، مثل رصد مواقع الخفافيش بالصدى، أو رصد مهارات تنقّل الطيور المهاجرة، ومقدار العجائب الطبيعية الأخرى المحيّرة للعقل، حتى لو حصرنا نطاقنا بحواس الإنسان والحيوان.

القدرة على قراءة أفكار أحد أفراد الأسرة – سواء هو قريب أو بعيد – كانت ستوفّر أيضًا ميزة وجودية مهمة، وسِمة مواتية، كحالات الطوارئ على سبيل المثال، حيث يتعذر علينا التواصل مع غيرنا إلّا من خلال قوة الفكر: «جيّد يا بني، ركّز وسأبلغك عن طريق التخاطر ما أفضل ما يمكنك فعله لضمان نجاتك على أفضل وجه.»

ليس صعبًا أن نتخيل أن القدرة على التواصل عن طريق التخاطر ستكون مجالًا مفيدًا لنستخدمه بالمعنى التطوري. ونتيجة لذلك يمكن بسهولة أن يكون سمة موروثة. وأي مجموعة سكانية ظهرت لديها سمة كهذه، ستنتج بمرور الوقت المزيد والمزيد من قُراء الأفكار، وشيئًا فشيئًا يقلّ عدد الأفراد القادرين على تدبّر أمورهم من دون هذه الميزة.

على أي حال، بُحث موضوع التخاطر بحثًا شاملًا خلال القرن العشرين، لدرجة أنه كان لا بدّ من رفض هذه الظاهرة في النهاية باعتبارها غير موجودة. إذ ليس لها أي أساس تجريبي، وتعتبر اليوم فرضية علمية شبه مهجورة - على الرغم من أن «قراءة الأفكار» ما زالت ممارسة مزدهرة بين السحرة وأفراد الأسر الظّرفاء.

طبعًا، اختبر الجيش بدقة إمكانية نقل الأفكار، على الرغم من النتائج المخيبة للآمال، ولو أُكِّدت هذه الظاهرة علميًا، لفتحت مجال بحث جديد كل الجِدة لأطباء الأعصاب في العالم. لكن جائزة نوبل لم تُمنح بعد، سواء في الفيزياء أو الطّب، لاكتشاف التخاطر البشري.

غير أن الكلمة الأخيرة لم تُقل بعد. ولا يمكننا استبعاد احتمال حدوث التخاطر كظاهرة نادرة ولكنها حقيقية. فمجرد عدم اكتشاف أي ظاهرة لا يعني أنها غير موجودة.

في السابق، استُخدِم مصطلح «البجعة السوداء» للدلالة على شيء لا يتصوره العقل، بما أن المعتقد السائد هو أن البجع كله أبيض - وبقي الأمر كذلك إلى أواخر القرن السابع عشر عندما اكتشف الأوروبيون البجع الأسود في أستراليا.

جَدّي

كنت في طفولتي، ولعدد من السنوات، مهتمًا بشغف بالسحر. هو افتتان ربما ورثته جزئيًا من جدّي. أي جدّ جدّكم. توفي حتى قبل أن أبلغ الثامنة من عمري، وطبعًا لم تكن لديه أدنى فكرة أنني في يوم ما سأكتب لكم كلكم هذه الرسالة، أحفادي، بعد أكثر من ستين عامًا. لكن من يدري، لعل حدسه أنبأه أنه في يوم من الأيام بعد وقت طويل سيكون لديه بعض الأحفاد المنحدرين من صلبه - أي أحفاد أحفاده على سبيل المثال، الذين سيأتون إلى هذا العالم بعد عديد وعديد من السنوات من انتهاء وقته هنا - بعبارة أخرى أعنيكم أنتم يا أحبابي ليو، وأورورا، ونوح، وألبا، وجوليا وماني!

كان جدّي بارعًا في استحضار العملات المعدنية من العدم، كما لو أنه ينتزعها من فراغ، أو يخرجها من آذاننا. يمكنه أيضًا أن يفعل العكس، كأن يجعل عملة معدنية تختفي تمامًا، تعود إلى لا شيء، قبل جعلها تظهر مرّة أخرى فجأة. بمجرد الانتهاء من ممارسة حيله، نحصل كلنا على عملة معدنية خاصة بنا.

لذلك كانت زيارة الجد ممتعة جدًا دائمًا. إذ سيتسنى لنا أن

نشاهد عرضًا سحريًا رائعًا، ثم نعود إلى المنزل ومعنا كرونة في جيوبنا، والتي اعتبرت في تلك الآونة مالًا كثيرًا، وقد كانت لدينا آنذاك أيضًا عملة أصغر تسمى أوره، والكرونة تساوي مئة من هذه القطع النقدية الصّغيرة جدًا. ويمكن أن يذهب المرء إلى المصرف ومعه مئة من هذه النقود ذات اللون البني الفاتح وتبديلها بكرونة واحدة لامعة - أو العكس. لا أتذكّر أن الصّرافين وجدوا ما هو مزعج أكثر من هذه الطلبات، بيد أنه تحتم عليهم تبديلها بالقيمة نفسها، بغضّ النظر عن نوعية الصرف المطلوبة.

لم تكن الكرونة من الجدّ كرونة عادية، بل كرونة سحرية، أو كرونة مجانية، لا تكلفه أكثر من مجهود أداء خدعته السحرية، وفي الوقت نفسه تتميز بقوتها الشرائية المماثلة لأي كرونة أخرى. حتى في ذلك الوقت، كان هناك ما يمكن مقارنته تقريبًا بالعملة المشفّرة اليوم.

درج جدّنا على ممارسة حيل العملات في أيام الأحد فقط، إنما ليس كل يوم أحد أيضًا. كان ساعاتيًا وامتلك متجره البديع لصنع الساعات، مع ورشة عمل في غرفة خلفية، في نهاية «هيدغاهاوسفاين» حيث ما زالت ساعة كبيرة معلقة إلى جدار

الرصيف اليوم أمام متجر ملابس أنيق المظهر.

في بعض الأحيان سُمح لنا بالدخول إلى ورشة العمل حيث نرى ماكينات السّاعات قيد التنفيذ الضّروري! وغالبًا ما بدت لنا الزنبركات والتروس الصغيرة وهي في حركة دائبة أشبه بالحشرات الصغيرة، أو حتى مستعمرات مكتظة بحشرات يصعب تحديدها. كان النظر إلى هذه الساعات المصممة بشكل معقد يكاد يوحي أنها تشكلت في واحدة من أعظم ألغاز الكون، وجدّنا نفسه هو المعلم الذي يشرف على كلّ ذلك.

أكثر ما أحببنا القيام به هو زيارة متجر صانع الساعات على رأس كل ساعة - والأفضل الساعة 12 - عندما تدقّ الساعات كلّها في المتجر وفي ورشة العمل معًا، وأشكال الوقواق في ساعات الوقواق تطل برؤوسها خارجًا وتوقوق بتناغم. طبعًا لا تدق الساعات كلّها في الوقت نفسه بالضبط، وليس طول الوقت، فبعضها قد يبدأ قبل ثوان قليلة من الحفلة الصّاخبة، وبعضها يتأخّر بضع ثوان قبل البدء. هذه الأخطاء الطفيفة كانت على الأرجح الأحبّ إلى قلوبنا. ضحكنا حينما تدقّ ساعة فجأة اثنتي عشرة مرة على التّوالي - في حين لا تنضم إليها أي ساعة أخرى لأن ولا واحدة منها متزامنة معها. وضحكنا عندما تدق ساعة بعد ثوان قليلة من استنفاد

الساعات الأخرى دقاتها. آنذاك يراقبنا جدّنا عن كثب، ويخيّل لي أننا لحظة مغادرتنا المتجر، سيقوم بدورة في المكان ويضبط الساعات على وقتها الصحيح، وهذا ربما ما اعتاد أن يفعله بعد الظُّهر يوميًا.

وهناك أمر آخر مهم يجب أن أقوله عن جدي، شيء فكرت فيه كثيرًا منذ أن أصبحت بالغًا. ففي غرفة جلوس جدّي وجدّتي كانت هناك لوحة مؤطرة تتضمن منظرًا لمدينة. في منتصف اللوحة برج كنيسة، وبرج الكنيسة فيه طبعًا ساعة كنيسة. غير أن تلك الساعة في اللوحة كانت ساعة حقيقية، لذا فإن اللوحة - التي عُلقت فوق بيانو الجدّ والجدّة - شكّلت عملًا فنيًا، وكذلك الساعة التي تتوسطها. لقد احتوت تلك اللوحة على كل شيء، وبهذا أعني كل ما اعتبره جدّي مهمًا: المدينة والكنيسة والساعة.

في مناسبات مختلفة، نُبِّهت بأن قصصي - مثل سرّ الصّبر أو لغز عيد الميلاد - غالبًا ما تضمنت في السرد، قصة ثانية أو عدّة قصص، كالصناديق الصينية، أو عوالم في قلب عوالم، وكثيرًا ما سألت نفسي ما إذا كان شيء من هذا الأسلوب يعود في أصله إلى اللوحة القديمة المعلقة فوق البيانو في غرفة جلوس الجدّة والجدّ. ولعل الساعات المفتوحة في ورشة جدي، التي

تعرض أمامي لمحة خاطفة عن عالم الأسرار الخاص بي، لعبت هي أيضًا دورًا.

ما أرمي إليه هنا هو أن حيل جدّي السحرية بالعملات المعدنية ساهم في تحويلي إلى ساحر صغير. هذا الشيء، الذي نسميه الآن «خفّة اليد» كان بالتأكيد مرتبطًا بسنوات خبرة جدّي في صناعة الساعات، وجاء من براعة يديه. إذا كان من الممكن قول إن شخصًا لديه يد سحرية، فهذا ما سيقال عن جدّي.

بعد سنوات قليلة من وفاة جدّي - وبعد ساعات من التدريب - أدّى هوسي الخاص بالسحر إلى تمكني من تقديم أول عرض سحري أمام والدي وإخوتي. تضمن العرض مجموعة مختارة من الحيل التي اهتديت إليها وحدي أو رأيت آخرين يؤدونها. وقد اخترعت بنفسي بعضًا من أكثر الحيل دهاءً، وعندما أصبحت زبونًا في «إيغيلو» وهو أفضل متجر للسّحر في المدينة، اكتسب شغفي بالسحر بُعدًا جديدًا.

بحلول ذلك الوقت، كنت قد أدركت طبعًا أن «السحر» ليس سوى تلاعب أو خداع أو ما نسميه بجدارة نوعًا من الإيهام. لكن خلال عروض السحر الاحترافية التي شاهدتها، مثل تلك التي عُرضت في حفلات عيد الميلاد بالمدرسة، كنت ما زلت

مأخوذًا بالسّحر. وذاك هو الهدف بلا شك. أن نُخدع بتصديق اختبارنا لشيء خارق للطبيعة.

الباراسيكولوجي

في سنّ المراهقة المبكرة، تحوّل اهتمامي الطفولي بالسّحر إلى استغراق قوي بالقدر نفسه بعلم الباراسيكولوجي. بعبارة أخرى أعني التخاطر أو نقل الأفكار، الذي سبق أن أشرت إليه ؛ والإدراك المسبق أو القدرة على رؤية المستقبل ؛ وما يسمى الاستبصار الذي على سبيل المثال يمنح المرء معرفة بأحداث من المستحيل الاطلاع عليها بطريقة أخرى. هذه القدرة على استحضار المعرفة الخفية هي ما نفكّر فيه عادة عندما نلمّح إلى أن شخصًا ما هو «وسيط روحاني.»

هذه الظواهر الثلاث - في حال تبين الآن أنها حقيقية - تقع كلّها في فئة ما يُطلق عليه «إ ح ز»، التي جرى البحث فيها وتناولتها عدة كتب في شبابي. وهي اختصار لمصطلح «الإدراك الحسّي الزائد»، أو المقياس الروحاني المفرط، على الرغم من أن كلمة «إدراك» فيها نوع من المبالغة إلى حدّ ما في هذا الشأن، وربما من الأفضل تسمية هذه الظواهر المعرفة الحسّية الزائدة.

السؤال هو: أهناك أي رؤى ممكنة عن المستقبل من المحتمل

على سبيل المثال – أن تصل إلينا خارج نظامنا الحسّي؟ (أنا هنا أتجاهل التّكهنات المتعلقة بتنبؤات الطقس وما إلى ذلك).

إذا كان من الممكن أن نعرف شيئًا عن المستقبل، فسيتعين حتمًا أن يأتينا بطريقة «خارج نطاق الحسّ». لأن الزمن يمرّ في اتجاه واحد فقط. والفيزيائيون غير قادرين على تفسير السّبب بشكل صحيح، فالمؤكد أن الزمن يسافر إلى الأمام فقط، وحتى أصغر الجسيمات في الفيزياء لا تستطيع العودة في الزمن إلى الوراء ولا بقدر جزء من الثانية. وبناءً على ذلك لا يمكن أيضًا أن يعود الضوء إلى الوراء.

إضافة إلى هذه الظواهر الثلاث المحتملة، تعامل البارا سيكولوجي مع ما يُطلق عليه «قوة التحريك بالعقل»، وهي تتعلّق بقدرة التأثير على الظّروف المادية باستخدام الوسائل العقلية أو الروحانية.

سيحاول الكثير منا، عند ممارسة لعبة النّرد، حثّ النّرد ليسقط على جانب يُظهر عددًا معيّنًا من النقاط، ويُفضّل مثلًا أن تكون ستة – أو خمس ستات إذا كان المرء يلعب الـ «ياتزي» أي لعبة تحقيق أعلى معدّل من النقاط! – وفي حال نجح أي شيء، وكانت ظاهرة حقيقية، فهي ستقع ضمن مصطلح قوة التحريك بالعقل.

هل كان من الممكن الإيمان بعلم التخاطر، أو أن هناك أي توقّعات بخصوصه؟

سبب تعبيري عن نفسي بهذه الطريقة يعود إلى أنه منذ اللحظة الأولى في تاريخ الباراسيكولوجي أو علم النفس الغيبي، ظهرت الرغبة في إثبات - أو على الأقل دعم - إمكانية أن يكون لدى البشر جوهر كينونة - «روح» أو «نفس» حرّة، بوسعها ربما أن تنجو من موت الجسد.

سجّل النصف الأول من القرن الماضي حربين عالميتين تسببتا في مقتل عشرات الملايين من البشر وفقدان العديد من الأحباء. ولعل هذا ساعد في تعزيز اهتمام الناس بالباراسيكولوجي. وأسفي لكوني مجرّد ضيف عابر في العالم، جعل شيئًا يخصّ هذا النوع من العلوم جذابًا للغاية.

قرأت عن الباراسيكولوجي خلال وقت كانت فيه هذه الظواهر الاستثنائية ما زالت تُقابَل بدرجة من الانفتاح الأكاديمي. في النرويج، ألّف عالم النفس «هارالد شيلدرب» كتابًا عن هذه الظواهر «الرجل الخفي» عام 1961. وقد سبق أن ألّف شيلدرب كتابًا قيّمًا عنوانه «مقدمة في علم الباراسيكولوجي»، وكان من مقرّرات الاختبارات التحضيرية الإلزامية في الفلسفة، وتُسمى أيضًا «امتحان الفلسفة»،

باعتبار هذا الامتحان بوابة الدراسة الأكاديمية.

الوضع حاليًا مختلف. فالآن الناس أحرار في تصديق ما يحلو لهم، على الرغم من وجود اتفاق معقول في داخل المؤسسات الأكاديمية اليوم على أن ظواهر الباراسيكولوجي لا يمكن التحقّق منها علميًا.

في الوقت نفسه هناك قصص عديدة عن أشخاص خاضوا تجارب «خارج نطاق الحسّ»، لا سيّما في الثقافة الشعبية، لكن هذه الحكايات لم يعُد لها أي مكان في العالم العلمي. هي ربما تتعلّق أكثر بأضغاث أحلام البشرية، وبوسعي أيضًا قول إنني شخصيًا استمتعت بالقراءة عن «الظواهر الخارقة» حتى بعدما توقّفت منذ فترة طويلة عن الإيمان بهذا النوع من الأشياء.

أولئك الذين يدافعون عن الأحداث الباراسيكولوجية - المؤمنون بها - يزعمون من جانبهم أن هذه الظواهر عفوية بطبيعتها أو غير سببية، ومن ثم لا يمكن إثباتها أو دحضها باستخدام الأساليب العلمية.

هنا حيث تقف الأمور بخصوص هذه المسألة. ما تعلّمناه إلى الآن عن الإدراك خارج نطاق الحسّ، من شأنه أن يتناسب مع

مقطع فيلم قصير. ولا أستطيع أن أقرّر بالضبط ما إذا سيكون فيلم إثارة نفسية أو فيلم عصابات، ربما القليل منهما معًا. مهما كان النوع، نحن هنا نتحدّث عن فيلم منخفض التكلفة:

رجل وامرأة يرتديان ملابس أنيقة - هو ببدلة «توكسيدو» رسمية وثمة منديل أبيض حريري في جيبة سترته العلوية، وهي بثوب أحمر قانٍ له ترتر أسود، وتضع حول عنقها عقد أحجار كريمة كبيرة وكذلك حول معصميها - والزوجان يصعدان درجًا رخاميًا يؤدي إلى كازينو حصري.

عند الوصول إلى الطابق العلوي، يتوقّفان وينظران إلى لوحة صغيرة مؤطرة معلقة إلى عمود عند المدخل. تقوم الكاميرا بتكبير اللوحة فيُسمح لنا قراءة ما هو مكتوب فيها: «لطفًا ننصح الوسطاء الروحيين بعدم زيارة الكازينو».

تلتقط الكاميرا وجه المرأة. نراها تغمز بعينها الرجل الذي ترافقه (وربما تغمز الكاميرا أيضًا؟) وتنتشر ابتسامة لعوب على شفتيها الحمراوين. يهزّ الرجل رأسه بعزم ويغرز سيجارة في منفضة سجائر خزفية كبيرة مفعمة بالرّمل.

يدخل الزوجان - الشّريران أو بطلا الفيلم إلى قاعة خفية فسيحة فيها مرايا من الأرضية إلى السقف. من الواضح أنه لم يسبق أن رآهما أحد في هذه القاعة من قبل، ومع ذلك يقبل

نحوهما النادل ويقدّم لهما كأسي شمبانيا على طبق فضي لامع.

بعد ذلك يُظهر الفيلم، في مشهد تلو الآخر، كيف يربح الزوجان مبالغ كبيرة من المال من خلال لعب الروليت - الأمر الذي يثير قلق مدير الورق في مائدة القمار. المرأة هي دائمًا التي تضع الرقائق على الطاولة. تقوم بمراهنات كبيرة، وغالبًا ما تضع أبراجًا كاملة من الرقائق في أحد المربعات الـ 36. وتفوز مرارًا وتكرارًا، كما لو أنها تعرف بالضبط أين ستهبط الكرة على عجلة الروليت.

أتراها تملك نوعًا من مهارة خاصة؟ أيمكنها أن تعرف مسبقًا، خلال الثواني القليلة الحاسمة، أين ستستقرّ الكرة لأنها طورت قوة الاستبصار لديها؟ أم أنها تتحكم بالكرة مستخدمة طريقة التحريك الذّهني؟

يتعيّن على الفيلم الآن أن يسير في واحد من اتجاهين محتملين: إما ما سبق ذكره، أو أن ما حدث إلى هذا الحدّ له تفسير مألوف، مثل أن يكون هناك تعاون خفي بارع بين المرأة ومدير مائدة القمار، أي بعبارة أخرى مجرد خداع محض مثل الحيل السحرية العظيمة كلّها. وفي حال عدم وجود تفسير مألوف، يكون الفيلم عبارة عن كوميديا خالصة.

بل حتى بداية القصة تبدو بعيدة الاحتمال بعض الشيء. إذ لا لافتات هناك معلقة عند مداخل الكازينوهات في العالم تطلب بأدب ألّا يدخلها الوسطاء الروحانيون. ولذلك لا حاجة لمثل هذه الإعلانات.

علوم الغيب

الكثير مما يسمى بعلوم الغيب، أي الأفكار التي تدور حول القوى الخفية أو الظواهر الخارقة للطبيعة، يقع خارج نطاق ما نسميه الباراسيكولوجي.

المعتقدات القديمة، كالقيام بتنبؤات عن حياة الشخص ومصيره بناءً على مواقع الأجسام الفلكية، لحظة ولادة الطفل على سبيل المثال - أي ما يطلق عليها علم التنجيم - ما زالت إلى اليوم حيّة ومزدهرة. لكن هنا، تمامًا كما نجد في مجال دراسة القوى فوق الطبيعية، ثمة حدود مرنة بين الإيمان بذلك، وبين ألعاب الصالونات والترفيه.

ربما تجدر الإشارة إلى أن فنّ التكهن بشكل عام يتعلّق بتفسير شيء غير واضح في الأساس - مثل مواقع النجوم، أو وجهة طيران طائر ما، أو الخطوط التي في راحة اليد، أو الأنماط في رواسب القهوة، أو الترتيب الذي ترسو عليه أوراق اللعب.

أنا شخصياً توقّفت عن وضع ثقتي في مثل هذه الأشياء عندما كنت في العاشرة أو الحادية عشرة من عمري. تقريبًا

خلال الوقت الذي بلغت فيه قمة براعتي كساحر. مع ذلك، كلما اعتراني الملل في إحدى غرف الانتظار، قد أتناول أحيانًا مجلة أسبوعية وأطالع فقرة الأبراج.

أناس كثيرون من جيلي علّقوا أملهم الأخير على وجود قوة خارقة للطبيعة تنطوي على أشياء تتضمن صدفًا مدهشة، أو ما نسميه التّزامن.

المصطلح نفسه صاغه الطبيب النفسي المبدع «كارل جوستاف يونغ» الذي يصف هذه الظاهرة بأنها «مبدأ الربط (التآزر)»، أو «صدفة ذات مغزى لحدثين أو أكثر حيث يكون هناك شيء آخر غير احتمال الصدفة».

لا شكّ في أننا قد مررنا كلّنا بنوع من صدفة مذهلة، ولو عملنا على جمع هذه الصدف كلّها، لأنها، على سبيل المثال، تلبّي حاجتنا إلى الإيمان بشيء ما، سيبدو لنا أنها تحدث أكثر بكثير مما هي عليه في الواقع. إنها مثل البطاقات في اليانصيب حيث لا تظهر سوى البطاقات الرابحة.

ثمة بحث قُرئ على نطاق واسع يناقش علم النفس الغيبي والتزامن، وهو كتاب الروائي آرثر كوستلر «جذور الصدفة» حيث حاول فيه ربط ما يعتبره الكثيرون ظواهر خارقة للطبيعة

بالفيزياء الحديثة. أراد كوستلر أن يعطي ما هو خارق للطبيعة تفسيرًا ذا مصداقية أثناء تعريف الفيزياء النووية والعالم نفسه على أنهما شيء شبحي. اليوم يرى معظم الناس أن هذا الطرح قد عفا عليه الزمن. إذ لا شيء في الفيزياء النووية يوحي بأن «الإدراك خارج الحواس» حقيقي.

ظواهر قديمة أخرى، ربما قديمة قدم الإنسانية نفسها، هي ما يسمى ظهور أو «تجسد» الكائنات الخارقة للطبيعة مثل أرواح الموتى أو الكائنات الإلهية أو الملائكة أو العفاريت أو الأقزام الخرافية. وفي الآونة الأخيرة، أصبحت فكرة الاتصال بالموتى شائعة بشكل خاصّ في عالم الروحانيات.

في جلسات تحضير الأرواح، غالبًا ما يُطلب مما يُسمى «الوسيط» أن يُجري اتصالًا مع أرواح الموتى. ولكن حتى خارج عالم جلسات تحضير الأرواح، هناك قصص كثيرة حيث يروي الناس حكايات عن ظهور تلقائي لأشخاص متوفين، أو عن كائنات خارقة للطبيعة من واقع آخر.

أتطرق إلى هذه الظاهرة في رواية قلعة في البيرينيه. وهي تحكي قصة ستاين وسولرون، اللذين عاشا معًا مرّة وكانا في حالة حب عميق، لكنهما، في رحلة برية عبر البلاد، شهدا

شيئًا مثيرًا للقلق، شيئًا مزعجًا وغامضًا، لم يستطيعا تفسيره، فأوّله كل واحد منهما بطريقة مختلفة جدًا، لدرجة أنهما لم يعودا قادرين على مواصلة العيش معًا.

بعد سنوات، يتقابلان من جديد في المكان نفسه الذي جرى فيه الحدث غير المفهوم - صدفة أخرى! - وما يلي اللقاء هو حوار بين رؤيتين مختلفتين للعالم. في النهاية، تحدث مصادفة جديدة غير سارة ...

لا أعتقد أنني ضمن معايير القصة، أعطي أي مصداقية لمعتقدات ستاين العلمية أكثر مما أعطي تفسير سولرون الروحي للتجربة التي اختبراها قبل عقود، وبطريقة ما تكون الكلمة الفصل من نصيب سولرون.

أما بالنسبة لي فالحكاية تدور بشكل أساسي حول حقيقة أنه من الممكن أن يتشكل لدى الناس فائض من المعتقدات، وأنه في بعض الأحيان بوسعنا أن «نرى» أكثر قليلاً مما هو موجود بالفعل.

تحدثت ذات مرة عن مثل هذه التساؤلات مع صديقة مقرّبة مني. وهي ليست على الإطلاق من الأشخاص الذين يؤمنون بالخرافات، لكنها أخبرتني أنني ينبغي ألّا أكون متأكّدًا جدًا

قبل أن تروي لي القصة التّالية - بتردّد في البداية، ثم في النهاية باقتناع كامل:

بعد انفصالها عن صديقها، عانت من فترة صعبة، وأمضت بضعة أيام تعيش في مزرعة قديمة في الجبال. وأثناء وجودها هناك صدف أن نظرت من نافذة صالة منزلها إلى المرج في الخارج. ورأت فجأة وبوضوح شديد شخصين يعبران الفناء. أحدهما أطول قليلاً من الآخر، لكن كلاهما قصير وأقرب إلى القزم. لبثت تراقبهما بضع ثوان - ثم اختفيا.

كانت متأكّدة تمامًا من حجمهما، بسبب وجود حبل غسيل معلّق في الفناء، لا يزيد ارتفاعه على متر فوق سطح الأرض، والمخلوقان شبه القزمين مشيا تحته ولم يضطرا إلى الانحناء.

جلستُ واستمعت باهتمام وهي تتحدّث. بطريقة ما أعادت خلق الجو العجيب بخصوص ما شهدَته. رأيتُ أنها قصة مؤثرة، وكنت مقتنعًا بأنها صادقة وتقول الحقيقة.

بعد فترة، سمعت نفسي أسألها: «أتعتقدين أنك كنت ستتمكنين من تصوير ما رأته عيناك لو أن لديك كاميرا فيديو جاهزة؟»

هذا جرى قبل وقت طويل من عصر الهواتف الذكية.

جلست هناك صامتة تمامًا، وأخيرًا هزّت رأسها بشكل مبهم وقالت: «لا، ربّما لا...»

بدت الحال كما لو أن شيئًا ما بدأ يتراءى لها ببطء.

نقول عادة، سأصدق ذلك عندما أراه. في الوقت نفسه ليس علينا دائمًا أن نصدق ما نراه أيضًا.

بيد أنه ليس كل من يقول إنه رأى شبحًا يكذب.

إن كتاب «رؤية غير واضحة عبر الزجاج» الذي كتبته قبل وقت طويل من ولادة أي منكم يا أحفادي، يحتوي أيضًا على نوع من السّرد ضمن السّرد - يشبه إلى حدّ كبير الساعة في برج الكنيسة في اللوحة القديمة المعلقة فوق بيانو الجدّ والجدّة.

سيسيليا سكوتبو ترقد في غرفة نومها وهي تعاني من مرض عضال، ومن المؤكّد أنها ستموت. يلازمها والدها ووالدتها وشقيقها لاسي وجدّتها وجدّها وصديقتها ماريان. ولكن عندما تكون سيسيليا وحدها في غرفتها، في الليل على وجه الخصوص، يزورها أيضًا ملاك يُدعى آرييل.

يحاول آرييل أن يفهم ما يعنيه أن يكون المرء إنسانًا، من لحم ودم، وتحاول سيسيليا بدورها أن تجعل آرييل يكشف لها عن بعض الأسرار السماوية، وما يتأتى هو مواجهة بين

السماء والأرض، والزّمن والخلود ...

لكن هل تقابل سيسيليا ملاكًا حقًا، وهل يؤمن كاتب القصة حقًا بمثل هذه الأشياء؟ لقد طُرِح عليَ هذا السؤال عدّة مرات، ولم أجد قطّ صعوبة كبيرة في الإجابة عليه.

لم يخطر ببالي مطلقًا أن القصة تفترض مسبقًا الإيمان بالملائكة. إذ من الممكن أن يحدث هذا اللقاء النادر بين السماء والأرض بأكمله في رأس سيسيليا، وهي نائمة، على سبيل المثال. إضافة إلى أنها مُثقلة بعلاج مكثّف، وهذا يجعل التناقض بين الزمن والخلود صحيحًا على قدم المساواة.

لذلك كان هناك عاملان مهمان بالنسبة لي أثناء عملية الكتابة هذه: أولاً، لم يتمكّن، بأي حال، أفراد الأسرة الآخرين من مجرد لمح آرييل طبعًا، فهذا سيدمّر الرواية بأكملها. ثانيًا: وهو الأهم، حرصتُ على أن يتحدّث الملاك باستمرار ويفكّر ضمن إطار أي مفاهيم قد تظهر في وعي سيسيليا.

لدى سيسيليا اعتقاد (خاطئ) بأن آرييل يمتلك وعيًا مستقلًا، أو أنه كائن مستقل. يمكن مقارنة هذا بالحلم الذي راودني حينما قابلت الرجل الطويل في الغابة. فـ «قارئ الأفكار» ذاك، لما استطاع إخباري المزيد عن عدد المجرات في الكون أكثر مما كنت - في أحسن الأحوال - قادرًا على معرفته بنفسي. وبالمثل، لم

يكن آرييل قادرًا على البوح بأي «أسرار سماوية» أكثر مما عرفته سيسيليا بالفعل. وهذا هو سبب استمرار استجواب سيسيليا للملاك ببطء شديد. فهي تسأل أكثر مما يمكن أن يجيب عنه آرييل.

تطرح سيسيليا على الملاك سلسلة من الأسئلة المعقدة، وتدهش من بعض الردود التي تتلقاها، على الرغم من أنه في نهاية المطاف ربما كانت سيسيليا هي التي فاجأت نفسها.

يحتوي العديد من كتبي على بُعد خيالي مماثل. لأن الخيال فتنني دائمًا. غير أن كل خيال هو على الدوام خيال شخص ما. وبالنسبة لي، لطالما خدمني هذا المبدأ البسيط كدليل أدبي.

احتجت باستمرار إلى «ترسيخ» بُعد القصة الخيالي في شخص ما. هذا يضفي على الخيال الجانب النفسي أو الحسي. من دون هذا الترسيخ، لا يصبح لدينا إلّا مجرد «خيال» (أو يمكنني القول، مجرد خيال خامل)، بعبارة أخرى، يصبح نوعًا أدبيًا عاديًا جدًا وجسمًا بلا إطار، وهذا أدب لم يُثر اهتمامي قطّ.

لقد توطدت صداقتي أكثر قليلاً بصديقتي عندما أخبرتني عن المشهد القوي لشخصين يسيران في فناء المزرعة. كشفت قصتها شيئًا عن نفسيتها، شيئًا شخصيًا - وهو أيضًا لامس شيئًا شائعًا للغاية في النّفس البشرية.

لعلّ الخيال مثل العطور: بالنسبة لي، كي أقدّر رائحة العطر، يجب أن تأتي من جلد شخص حي. وإذا كنت سأعجب بقصة رائعة، يجب أن تحتوي أيضًا على تلميح بشيء إنساني فريد من نوعه.

ربما هذا هو سبب قول امرأة ما إنها قد وجدت عطرها المناسب - أو أن ذلك العبير «لي». ومن المحتمل كذلك أن هذا هو سبب قيام صانع العطور بتجربة منتج ما على معصم العميل.

رائحة العطر النقي النّفاذة أي «من الزجاجة مباشرة،» من غير ملامسة الجلد، يمكن أن تجعلني أشعر بالغثيان.

المعجزات والتجليات الخارقة للطبيعة ليست مجرد مكونات شائعة في الأساطير والفولكلور. هذه «المعتقدات الإلهامية» هي أيضًا أساس أديان العالم، وبهذا المعنى تساعد في جعل الأديان تبدو في جوهرها إنسانية.

إذا أردنا أن نناقش بجدية ما إذا كانت الكائنات الخارقة

موجودة بالفعل، وأعتقد أنه ينبغي علينا ذلك، فسأعبّر عن نفسي بشكل مختلف قليلاً:

لطالما كانت لدى البشر مجموعات مختلفة من الأفكار حول الكائنات الخارقة للطبيعة. ومع ذلك، عبر تاريخ البشرية، لم تكشف مثل هذه الكائنات عن نفسها أو صرّحت عن وجودها بأي شكل من الأشكال لأي إنسان أو مجموعة، والسّبب في هذا ربّما هو التفسير الأسهل – أي عدم وجود مثل هذه الكائنات.

لا يمكننا استبعاد احتمال أن تكون كل فكرة عن الظواهر الخارقة للطبيعة ليست إلّا خاطرة بشرية لا تستند إلى ما هو أكثر من الإنسانية نفسها. لذلك، كانت لهذه المعتقدات في المقابل أرض خصبة. ولعله يوجد هنا عدة عوامل حاسمة: مصدر الخيال البشري النشط، وحاجتنا المتأصلة للبحث عن الروابط الخفية حتى في حالة عدم وجود أي منها، وربما بشكل خاص، معارضتنا الشرسة لفكرة قبولنا أن الحياة ستنتهي في يوم ما، ولن تسفر إلّا عن لا شيء هائل.

ربما لن نهرب أبدًا من التفكير في ما هو خارق للطبيعة، لأننا بشر.

لذلك سيفاجئني، يا أحبابي ليو، وأورورا، ونوح، وألبا،

وجوليا وماني، إذا لم يؤمن أحدكم أو أكثر، في مرحلة ما من حياتكم بوجود شيء خارق للطبيعة، في بعض مجالات الحياة على الأقل - وطبعًا، لن تتلقوا أي تحذيرات مني في هذا الصدد. (ربما أشعر بالقليل جدًا من الغيرة...)

إن صرف شخص ما عن معتقد أو خرافة يشبه تقريبًا عدم تشجيعه على الحبّ أو الصداقة أو اختبار عجائب الطبيعة. قليلة هي الأمور التي تُعدّ أكثر إنسانية من هذه المشاعر. وقليلة هي الأشياء التي تُعدّ أكثر إنسانية من امتلاك المرء لمعتقد ما.

لقد سلّط الكاهن الدنماركي وكاتب التراتيل «نيكولاي غروندفيج» الضوء على شيء ما زال يتردّد حتى اليوم. كتب: «الإنسان أولًا ثم المسيحي». وربما قال في الدنمارك اليوم، «الإنسان أولًا ثم المسلم».

أو أيضًا - نقول، لأنه ربما من المهم أن نتذكّر: «الإنسان أولًا ثم الملحد.» فالملحدون أيضًا يمكن أن يتصرّفوا بتعصّب و«همجية» بكل ما يعتريهم من حماسة. هم أيضًا عرضة إلى الوقوع في الخطأ. عندما يتعلق الأمر بمسائل الإيمان، نعمل من دون أن نمتلك إجابة واقعية تحت تصرّفنا.

مع ذلك، على الرغم مما قد نؤمن به كلنا أو نفكر فيه، من

المهم ألّا ننسى أننا أولاً وقبل كل شيء بشر.

ويسعدني أن أتقدّم خطوة أخرى إلى الأمام: نحن أول البشر وآخرهم. نأتي إلى العالم عُراة، بلا أي متاع (باستثناء مجموعة من الجينات التي تقول شيئًا عن هوّيتنا)، وفي النهاية نغادر العالم عُراة بوفاض خالٍ كما أتينا.

لكن لدي خيط مشترك يجب ألا يغيب عن بالي.

التجربة شبه السامية أثناء قيامي بزيارة عالم مسحور، وضياعي في متاهة تدفق الزمن، لا تفارقني أبدًا. وقد خرجتُ من سنّ المراهقة بلا أي أبعاد للتسوية.

إن ما تعلمته عمّا يسمى علوم الغيب زاد في إرباك الأمور. كل ما أتاحته لي هو إطلاعي على خريطة مشهد لا وجود له. المعجزة الحقيقية الوحيدة هي أن العالم موجود.

لذا تحتم عليَ أن أعيد توجيه نفسي. توجيهها هذه المرة نحو الطبيعة، نحو الكون والكوكب الذي نعيش فيه.

كوكب الأرض

في نهاية العام الذي بلغت فيه السادسة عشرة من عمري، التُقِطت واحدة من أهم الصور في تاريخ التصوير الفوتوغرافي. أُخِذت تلك اللقطة عشية عيد الميلاد عام 1968 من المركبة الفضائية أبولو 8 – التي طافت لتوها حول القمر – وأظهرت كوكبنا الأزرق ناهضًا بشكل مهيب في السماء.

سُميت الصورة شروق الأرض، وهي تسمية مضللة كثيرًا في الواقع. وذلك لأن القمر يواجه الأرض دائمًا بالطريقة نفسها، وكوكبنا لا ينهض فوق أفق القمر مثلما يعبر القمر أفق الأرض قبل أن يصعد ببطء إلى السماء. كوكبنا الأزرق والأخضر موجود ببساطة هناك، في السماء، عالياً فوق تضاريس القمر الطبيعية القاحلة، وإن يكن متغير الأطوار، والأمر يشبه إلى حدّ كبير كيف نرى القمر من كوكب الأرض.

كان طاقم أبولو 8 هو الذي شهد «شروق الأرض» فوق الأفق القمري، بينما تسللت المركبة الفضائية من خلف القمر.

تتميّز رحلة أبولو 8 بأنها المرة الأولى التي تدور فيها مركبة فضائية مأهولة حول القمر. وكذلك المرّة الأولى التي يرى فيها

البشر كوكب الأرض من جرم سماوي آخر.

لاحقًا، سُئل الطاقم الذي شارك في هذه الرحلة التاريخية عن أكبر انطباع تشكّل لديهم. بما أنهم أول البشر الذين فعلوا ذلك، كان من المتوقّع أن يقولوا إنه الدوران حول القمر والنّظر إلى فوهاته من مسافة قريبة. لكن رواد الفضاء الثلاثة أقرّوا أن الشيء الوحيد الذي استحوذ عليهم حقًا هو مشهد الكوكب الأزرق في مواجهة منظر طبيعة القمر القاحلة.

وبعد نصف قرن، في الذكرى الخمسين للصورة التاريخية، قال وليام أندرس، أحد رواد الفضاء، وهو العضو الذي التقط الصورة، والذي كان في مرحلة ما السفير الأمريكي في النرويج: «انطلقنا نستكشف القمر، فاكتشفنا الأرض عوضًا عن ذلك».

وقد جادل كثير من النّاس في أن «شروق الأرض» ينبغي اعتباره رمز الحركة البيئية الحديثة.

في 14 شباط 1990، حدث معلَم جديد آخر في تاريخ البشرية. كانت المركبة الفضائية «فوييجر 1»، التي أُطلِقت في أيلول 1977، قد غادرت النظام الشمسي بعد استكشاف كوكبي المشتري وزحل. ثم بناءً على طلب عالم الفلك الأمريكي كارل ساجان، أُرجِعت كاميرات السفينة إلى الخلف تجاه الشمس، لالتقاط «صورة عائلية» أخيرة للكواكب في النظام الشمسي.

كانت في الواقع سلسلة كاملة من الصور التي دُمِجت لاحقًا لإنشاء صورة واحدة متماسكة للنظام الشمسي كما يبدو من الخارج.

في إحدى هذه الصور، تظهر الأرض كنقطة صغيرة زرقاء شاحبة، وهذا ما أصبح اسم الصورة لاحقًا، وبقي هذا الاسم عنوان كتاب ألّفه كارل ساجان نفسه. آنذاك، كانت المركبة الفضائية «فوييجر 1»، وما زالت في الواقع، أقصى ما وصلت إليه مركبة في الفضاء من صنع الإنسان، وربما لن يتجاوزها أبدًا أي جسم آخر من صنعه.

في آب 2012، انطلقت «فوييجر1» في الفضاء بين النجوم لمواصلة رحلتها عبر درب التبانة. سوف يستغرق الأمر حوالي أربعين ألف سنة قبل أن تقترب من نجم جديد. وآخر أدوات التشغيل العاملة على متنها ستتوقف عن العمل حوالي عام 2030، لكن المسبار الذي على متنها يحتوي على قرص صوتي ومرئي، ويتضمن ثروة من المعلومات عن الطبيعة والثقافة في الأرض. ولا يسعنا إلّا أن نحلم بأن هذه المعلومات، في يوم من الأيام، بعد عدة آلاف أو ملايين السنين من الآن، ستصل إلى بعض الكائنات الذّكية هناك، وتشهد على الحياة والحضارة التي سادت هنا في كوكبنا منذ زمن بعيد.

النقطة التي لا تكاد تكون مرئية التُقِطت من مسافة تزيد على 6 مليارات كيلومتر، أو ما يقرب من 5.5 ساعة ضوئية. الصورة المأخوذة من «فوبيجر1» بعدسة تصوير عن بعد في عيد الحبّ، تتكون من 640 ألف بكسل (نقطة ضوئية). لكن من هذه المسافة، تملأ النقطة الزرقاء الباهتة – التي هي عالمنا وكوكبنا وملاذنا – أقلّ من بكسل. أي 0.12 بكسل فقط!

منذ آلاف السنين دأب البشر على تمشيط الكون، وعلى مدى مئات السنين الماضية فعلوا ذلك باستخدام تلسكوبات فائقة الدّقة. الآن أصبحنا فجأة قادرين على تحويل وجهة التلسكوبات والنظر إلى أنفسنا.

ووجدنا ذرة كوكب في نقطة اعتباطية في الكون. وهذا يستدعي التواضع. ويتطلب مراعاة هذه البقعة التي نشغلها.

كلّما نظرت إلى هذه النقطة، فكّرت دائمًا: هذا هو المكان الذي أنا فيه! لم أتخيّل نفسي مختبئًا في مكان ما ضمن بقعة شبه غير مرئية فحسب، بل تخيّلت أيضًا أنني هذه البقعة، لأنها تبدو صغيرة جدًا مجهريًا، وسيكون من السخف اعتبار وجود مكان خاص فيها للاختباء.

التُقِطت الصورة في شتاء عام 1990، وأنا أجلس في مرآب

بالقرب من بيرغن أكتب قصة سرّ الصّبر. أتذكّر أنني في ذلك الوقت، كثيرًا ما تمشيت خلال فترة متأخّرة من المساء، وأنا أنظر إلى النجوم. لن أقول إنني لمحت «فوبيجر 1»، لكنني كنت أديم التحديق في الكون...

مقياس الزّمن

أكتب في رواية سرّ الصّبر عن تحطّم سفينة، أو سفينتين، كي أكون أكثر دقة. الأول عام 1790، والثاني بعد 52 عامًا...

قبل أن نعود إلى الفضاء، أودّ أن أضيف فصلًا عن عصر الرحلات البحرية ومسح كوكبنا ورسم الخرائط. كانت هذه أيضًا فترة يأخذ فيها فنّ صناعة الساعات دورًا حاسمًا، وأتساءل ما المدى الذي بلغته معرفة جدّي بهذا الموضوع. وأتوقّع أنها كانت معرفة جيّدة جدًا. ففي بداية القرن العشرين، أمضى عدة سنوات يعمل متدرّبًا في صناعة الساعات في تونسبيرغ، التي كانت مدينة تجارة وشحن بحري مهمة في ذلك الوقت.

عندما راحت السفن الشراعية العظيمة في القرنين السابع عشر والثامن عشر تعبر محيطات العالم، كان من المهم للغاية أن يعرف المرء مكان وجوده في الكرة الأرضية طول الوقت. بما في ذلك الرحلات الأصغر، بين إسبانيا وإنجلترا على سبيل المثال، فالوصول إلى الوجهة الصحيحة هو جزء أساسي من كون المرء بحارًا ضليعًا. كالوصول ربما إلى مدينة ساحلية إنجليزية معينة،

من دون الانحراف عن المسار والاصطدام بقارب آخر أو على الصخور. وهذا الأخير كارثي بطبيعة الحال. فقد حصد تحطّم عدد لا يحصى من السفن أرواح الآلاف من البحارة، ناهيك عن خسارة البضائع القيّمة أيضًا.

لم يكن حساب خطّ العرض، أي كم يبعد المرء جنوباً أو شمالاً، إنجازاً عظيماً. حيث يقيس البحارة بكل بساطة زاوية الشمس وهي عند أعلى نقطة في السماء، وليلًا يمكنهم الاهتداء بالنجم القطبي.

ولكن كيف يمكن حساب خط الطول - ليكتشف البحارة كم يبعدون شرقًا أو غربًا؟

إنه سؤال لم يمتلك أي شخص إجابة مرضية عليه. ثم في عام 1675 عيّنت إنجلترا أول عالم فلك ملكي لها، «جون فلامستيد» الذي كُلِّف بحلّ «مشكلة خطّ الطول»، المشكلة التي مثّلت أكبر تحدٍّ يتعلق بالملاحة البحرية بالنسبة إلى الدولة. للقيام بذلك، احتاج فلامستيد إلى مرصد فلكي، لذلك بُني هذا المرصد بسرعة قياسية، على تلة في متنزه غرينتش جنوب شرق لندن، حيث كان هناك برج وفّر ذات مرّة رؤية واضحة لنهر التايمز ولمحة عن لندن من بعيد.

كانت أفضل طريقة لتحديد خطّ الطول في البحر هي رسم

جداول دقيقة لمواقع الشمس والقمر والنجوم. عنى هذا في الوقت نفسه أن السفينة بحاجة أيضًا إلى وجود عالم فلك على متنها، ويجب أن تكون السماء مثالية الصفاء.

هل يا ترى توافرت هناك طريقة لحساب خط الطول في البحر غير الاستعانة بالنجوم في الملاحة؟

منذ العصور القديمة، عرفنا أنه يمكن تقسيم الجسم الكروي إلى 360 درجة، وأن الأرض تستغرق 24 ساعة لتدور حول محورها. وهذا عمل على خمس عشرة درجة لكل ساعة. كل درجة تقابل أربع دقائق ...

من حيث المبدأ، عنى ذلك أنه إذا كانت هناك ساعة على متن السفينة، تبيّنُ بالضبط وقت وجودها في الميناء الذي غادرته - إلى جانب ساعة تُضبط يوميًا وفقًا للتوقيت الشمسي الصحيح في البحر - فهذا أيضًا يمكن أن يجعل من السهل معرفة موقع السفينة بحساب عدد الدرجات والدقائق بدقّة شرقًا أو غربًا.

على سبيل المثال، بعد ساعة من وصول الشمس إلى أعلى نقطة في السماء في غرينتش، سيكون هناك «مشهد ظهيرة» على بعد خمس عشرة درجة غرب غرينتش، وبعد ساعة أخرى سيكون هناك خمس عشرة درجة أخرى غربًا - على متن سفينة تبحر إلى أمريكا عبر المحيط الأطلسي مثلًا. (تقع

نيويورك 75 درجة غرب غرينتش بالضبط، وبالتالي فهي تتقدّم بخمس ساعات عما سُمي في النهاية توقيت غرينتش).

أي شخص لديه ساعة دقيقة في السفينة، تبيّنُ التوقيت المحلي في الميناء الذي انطلقت منه، سيكون قادرًا بسهولة على حساب عدد الدرجات التي أبحرت فيها السفينة شرقًا أو غربًا.

لكن كانت هناك مشكلة واحدة فقط: ساعة سفينة بهذه الدقة بدت شيئًا لا يمكن تخيّله في القرن السابع عشر. ففكرة مثل هذه الساعة المعجزة بدت غير مجدية بقدر الحلم بإمكانية إبحار سفينة حول القمر، أو أنه يمكن إطلاق تلسكوب إلى الفضاء ثم النّظر إلى كوكب الأرض من حافة النظام الشمسي. في عام 1714، بعد سلسلة مميتة من تحطّم السفن، أنشأ البرلمان الإنجليزي مجلسًا لقانون خطّ الطول، مع وعد بمكافأة قدرها 20000 جنيه إسترليني أيضًا لأي شخص يمكنه ابتكار طريقة لحساب خطّ الطول في البحر بدقة تقلّ عن نصف درجة. وتلك مكافأة ضخمة، تعادل عدة ملايين من الجنيهات الإسترلينية اليوم.

على مرّ السنين، تلقّى مجلس قانون خطّ الطول عددًا من المقترحات المبتكرة، بعضها يكتنفه الغموض، وبعضها يتضمن إجراءات عملية من المستحيل تنفيذها.

منذ فترة طويلة، استندت أكثر المحاولات جدّية لحلّ مشكلة خطوط الطول إلى الملاحظات الدقيقة لحركة الأجرام السماوية. ولا أحد بعد لديه أي ثقة بوجود ساعة سفينة دقيقة بما فيه الكفاية.

لكن «جون هاريسون»، ابن نجار، انكبّ على العمل بهدوء لتوفير مثل هذه الساعة، وبعد ستين عامًا تقريبًا من إنشاء مجلس خطّ الطول، كان هو من تسلّم الجائزة أخيرًا بعد الكثير من المناقشات. صمّم هاريسون ساعة السفينة، أو الكرونومتر، أي مقياس الزمن، الذي كان في غاية الدّقة والمتانة في البحر، بحيث يُظهر الوقت في غرينتش، في أي وقت. كلّ ما احتاجه المرء بعد ذلك هو حساب توقيت اليوم المحلّي، وحينها سيعرف بالضبط مكانه في الأرض.

قضى صانع الساعات العصامي حياته كلّها في تجربة أنواع مختلفة من ساعات السفن، لكن فكرته الأساسية كانت بسيطة للغاية: أخبرني ما هو الوقت في غرينتش، وسأخبرك أين أنت.

ومع ذلك، مرّت حوالي مئة عام قبل أن تتفق دول العالم على المكان الذي يجب أن توضع فيه خطوط الطول والمناطق الزمنية

في العالم. ثم في مؤتمر الميريديان الدولي في واشنطن عام 1884، تقرر أخيرًا أن يمرّ خطّ الطول الرئيس للأرض عبر المرصد القديم في غرينتش.

احتاج العالم إلى معيار زمني عالمي مع مناطق زمنية منظمة. في الماضي، كانت المجتمعات تشير إلى توقيتها المحلي باستخدام مشهد ظهيرة الشمس؛ حيث تقع الشمس جنوبًا تمامًا في منتصف النهار، أي الساعة 12 ظهراً. ولم تستدع الحاجة الإشارة إلى الوقت بأي طريقة أخرى. فالاتفاقيات أُبرِمت ضمن نطاق المجتمع المحلي، إضافة إلى استحالة التحرك شرقًا أو غربًا، سواء سيرًا على الأقدام أو على ظهر حصان أو عربة، في يوم واحد.

من جيل إلى جيل، جرى تعيين الوقت بأي معلم مرّت به الشمس في منتصف النهار، واستمر هذا الاتفاق الصامت بلا عائق إلى أن أُنشِئت السكك الحديدية في 1800 و 1900. ولم تطرأ أي حاجة لاتخاذ طريقة جديدة للإشارة إلى الوقت قبل ظهور وسيلة النّقل الجديدة هذه.

قوبل الناس بالترحيب ليحتفظوا بتوقيتهم المحلي، غير أن الحاجة على الصعيد الوطني استدعت وجود «توقيت للسكك الحديدية»، كان من الضروري في الواقع وجود جداول زمنية وطنية مع أوقات مغادرة محدّدة بوضوح، بغض النّظر عن مدن

الانطلاق أو مدن الوجهة أو التي تكون بينها.

ومع ظهور التلغراف والهاتف، باتت الحاجة ملحّة لأن يكون للعالم بأسره «وقت عالمي» مقسم إلى مناطق زمنية محدّدة بوضوح. كانت النرويج على بعد ساعة واحدة شرق لندن، سواء كان المرء في بيرغن أو في كيركينيس. وعندما افتُتِح خط بيرغن في عام 1909، زُوِّدت المسافة الكاملة بين بيرغن وأوسلو (ثم كريستيانيا) بجدول زمني واحد.

الاطّلاع على الوقت بالضّبط، اكتسب فائدة عملية.

عندما انطلق المستكشف البريطاني الكابتن جيمس كوك في رحلته الثانية عام 1772، أخذ معه نسخة طبق الأصل من كرونومتر (مقياس الزمن) هاريسون على متن سفينته، وتفاخر علنًا بأهميته كأداة ملاحية.

مكّنت هذه الساعة كوك من رسم خرائط لجزر المحيط الهادئ ليست فقط الأولى من نوعها، بل أيضًا دقيقة بشكل لا يُصدق. يكتب كوك مرارًا وتكرارًا في مذكراته عن «صديقنا الموثوق به، الساعة»، وعن «مرشدنا الذي لا يفشل أبدًا، الساعة».

لكن رحلات القبطان لم تكتفِ برسم خرائط للجزر في المحيط الهادئ. ففي رحلته الأولى، حوالي 3 حزيران 1769، قام

برحلة استكشافية إلى تاهيتي لمراقبة ما يسمى بعبور كوكب الزهرة، وهي ظاهرة فلكية نادرة حيث يتحرك كوكب الزهرة عبر وجه الشمس.

في ذلك الوقت، كانت ستة من الكواكب التي تدور حول الشمس معروفة، غير أن أحدًا لا يملك أدنى فكرة عن ضخامة النظام الشمسي من حيث الأميال أو الكيلومترات.

بحلول عام 1716، توصّل عالم الفلك الإنجليزي «إدموند هالي» إلى أنه يمكن حساب المسافة إلى كوكب الزهرة من الأرض من خلال مراقبة عبوره من عدة نقاط مختلفة. وهذا عنى أن إمكانية الحصول على فكرة عن حجم النظام الشمسي قد تكون في متناول اليد.

لم يكن الكابتن كوك مجرد واحد من أوائل الأشخاص الذين رسموا خريطة للجزر في المحيط الهادئ. بل أيضًا ساهم في المسح الأول للنظام الشمسي.

الزمان والمكان

عندما نحدّد موضعنا في الفضاء، نحتاج إلى أخذ شيئين بالاعتبار في آن واحد: الزمان والمكان. هذان البعدان مرتبطان بشكل لا ينفصم. فالنظر إلى المكان هو بالقدر نفسه مثل الالتفات والنظر إلى الزمن.

حتى الصورة التي نلتقطها لشيء محلي مثل قمرنا، هي تقريبًا أقدم بثانية ولذلك تنتمي إلى وقت مختلف عن زمننا. يصل إلينا ضوء الشمس بعد حوالي ثماني دقائق «تأخير». ولم تكن صورة الأرض الملتقطة من فوييجر 1 لقطة دقيقة. إذ بيّنت كيف بدت الأرض عند ظهورها من حافة النظام الشمسي قبل خمس ساعات ونصف تقريبًا من التقاط الصورة.

إذا حدّدنا موضعنا خارج نظامنا الشمسي، تصبح هذه التأخيرات كبيرة. ولا يمكننا أن نعرف كيف يبدو شكل نجم في هذه اللحظة من الزمن، فقط كيف بدا منذ وقت طويل، ربما في الماضي البعيد جدًا.

ربما يكون نجم ما قد انهار قبل وقت طويل من وصول مثل هذه «الأخبار» الكونية إلينا. وعندما نلمح الضوء من مجرات

بأكملها خارج درب التبانة، فإننا نتحدث عن مسافات ملايين السنين الضوئية في الزمان والمكان.

يمكن أن يبدو نجمان - في الكوكبة نفسها على سبيل المثال - بالعين المجردة مثل جارين قريبين في سماء الليل، على الرغم من أنهما في الواقع في منتهى التباعد. قد يكون الضوء من أحد النجمين قد سافر عبر الفضاء لبضع سنوات فقط، في حين أن الضوء من النجم الآخر قد يكون مسافرًا منذ آلاف السنين.

لا يوجد «الآن» المطلق الذي يمكن تطبيقه على الكون بأسره. علينا أن نقبل بـ «هنا والآن» محدودين، لأن فكرة «الآن» نفسها لا تكون منطقية إلا من خلال ما يتعلق بمحيطنا المباشر، هذا على الأقل إذا رجعنا إلى نظرية أينشتاين النسبية.

هناك العديد من «الآن» في الكون حيث توجد نقاط مراقبة. وليس لدينا «سطح للحاضر» مشترك يربط هذه المواقع معًا.

يمكننا الاستلقاء على الثلج أو نبات الخلنج والنظر إلى الليل الدنيوي. (شيء نقوم به نادرًا جدًا!). ويمكننا أن نشير إلى النجوم والأبراج ووصف ما نراه، انظروا هناك! ...انظروا!

لكن السؤال عما هو عليه الكون كله فعلًا في الوقت الحالي يكاد يكون بلا معنى. لا يوجد شيء على الإطلاق اسمه

«الآن بالضبط» في هذا. كل ما في الكون هو شيء يحدث، أو في طريقه إلى الحدوث، ويحدث بسرعة الضوء.

وليس الضوء المتجول فقط هو ما يجعل من الصعب تكوين صورة للفضاء، أي لقياس الكون من حيث الزمان والمكان. فالنجوم أيضًا بالنسبة إلى بعضها بعضًا تتحرّك، وبسرعات مدهشة.

مجرات بأكملها يتباعد بعضها بعيدًا عن بعض، بسرعة ملايين الكيلومترات في الساعة. نحن نعيش في عالم متمدّد، الذي بدأ بالانفجار العظيم منذ أربعة عشر مليار سنة تقريبًا.

*

علينا أيضًا أن نحدّد موضعنا في الزمان والمكان خلال حياتنا اليومية أيضًا. لا يكفي مجرد الاتفاق على مكان لقاء. نحتاج أيضًا إلى تحديد متى نلتقي. إذا التزمنا بالإحداثيات المتفق عليها في الزمان والمكان، نضمن الالتقاء. إنما ليس إذا اتفقنا على الاجتماع قرب نافورة يومًا ما في الأسبوع المقبل. اتفاقنا مثلًا على الاجتماع في أوسلو في 26 أيار الساعة 30.19 لا فائدة فيه كذلك.

كانت هذه هي الحال دائمًا، وما زالت. غير أننا في الوقت الحاضر لا نحتاج إلى توخي الحذر عند التخطيط لأي لقاء نظرًا لأن لدينا جهازًا جديدًا تمامًا تحت تصرّفنا. وأنا هنا أشير أولاً وقبل كل شيء إلى الهاتف الخلوي. لقد جعل هذا الجهاز من السهل تنظيم أي موعد قمنا بتحديده. كما أنه سهّل العثور على مكان الاجتماع المُتَفق عليه. إضافة إلى أن فيه ساعة دقيقة للغاية.

قبل بضع سنوات، ربما يكون أحد الشخصين المقرّر أن يلتقيا قد نسي أو أساء فهم وقت الاجتماع أو المكان المحدّد له، وإذا حدث هذا أكثر من مرة، فقد تنتهي الصداقة أو العلاقة التي تربطهما.

قد يقف المرء عند زاوية شارع لساعات والغضب المتزايد يعتريه، لأن الشخص الآخر إما متأخّر أو ينتظر في الزاوية الخطأ. قد يكون هامش الخطأ لمدة خمس عشرة دقيقة كافيًا لجعل المرء يفقد أثر رفيقه. أما أي واحد من الخطأين المربكين أكثر إحراجًا - بضعة أمتار أو بضع دقائق - فهذا متفاوت التقدير - بيد أن العواقب الناجمة عن ذلك هي نفسها.

اليوم، بوسعنا تغيير موعد بوساطة هواتفنا الذكية في بضع ثوانٍ فقط، إما عن طريق الرسائل النصية أو الاتصال. ويمكننا

أن نضحك على نسيان أحدنا العنوان أو تأخّره بضع دقائق، ونسلّم بحقيقة أن العالم وحياتنا يُداران بطريقة مرنة وقابلة للتعديل.

كنّا إذا أردنا أن نلتقي مع أحد في أمسية صيفية في أوائل السبعينيات، نقصد المدينة، وربما نلتقي في الشارع، أو نرتاد أحد المقاهي ؛ في زمني لم يكن هناك سوى ثلاثة أو أربعة مقاهٍ اعتُبرت أماكن لقاء محتملة. وإذا لم ير بعضُنا بعضًا هناك أيضًا، قد نجتمع بشخص آخر يمكننا البقاء معه، وفي حال حالفنا الحظّ، قد يعرف أحد أولئك الأشخاص الآخرين أين هو مكان من نقصد رؤيته بالضبط - الشخص الذي نسعى إلى لقائه في المقام الأول. كان ذلك أشبه بتلغراف نشر المعلومات عن طريق الكلمة.

ربما كانت المدينة أصغر مما هي عليه اليوم. بيد أن النقطة المهمة هنا أن الهواتف المحمولة لم تتوافر لدينا آنذاك. كنّا طيورًا حرة. وكان ذلك في منتهى الروعة أيضًا.

لقد عشنا أكثر في الآن أو الوقت الحاضر. وبينما أنا أكتب هذا، عاودتني لحظة لن أنساها أبدًا. كنت جالسًا في مقعدي في صف علوم مدرسة آرفول، وعمري اثني عشر عامًا، وربما

لم أعر المعلم الكثير من الانتباه. في الواقع جلست أحدق في الشارع من النافذة.

هناك، في أقصى نهاية الشارع، رأيت أمًا تدفع عربة أطفال بيد واحدة، وتحمل باليد الأخرى طفلًا أكبر، ربما أخ الرضيع أو أخته.

قرّرت بيني وبين نفسي أنني سألتقط هذه اللحظة وأحتفظ بها في ذاكرتي، هذه النقطة الواحدة ضمن صورة أكبر بكثير، هذا التفصيل الدقيق، أو مشهد الخلود، نعم بعد أن يكون كل شيء فُعِل وقيل.

لقد نسيت طبعًا معظم التجارب الحسّية في حياتي، باستثناء هذه التجربة، لأنها تركت لدي انطباعًا لا يُمحى. فهي تُصنف كواحدة من أكثر اللحظات المحورية، ولعلها لحظة «هنا والآن» في حياتي!

في طفولتي، درجنا على قضاء عطلة الصيف بأكملها تقريبًا في كوخنا الجبلي، ذلك الكوخ الذي ما زلنا نقصده ونشير إليه باسم هينغسن، وهو بلا كهرباء ولا هاتف. وإذا قرّر عمّ أو عمة زيارتنا خلال الصيف، فيجب ترتيب ذلك قبل عدة أسابيع.

أي صحف أو رسائل تُسلّم بوساطة شاحنة الحليب، وتُترك

على منصة حاويات الحليب عند الطريق الجبلي في الأسفل، وإذا كان هناك شيء واحد آنذاك ما زلت أشعر به حتى يومنا هذا، فهو المشي الذي اعتدت القيام به إلى منصة حاويات الحليب والعودة منها، مسافة كيلومتر ونصف للذهاب ومثلها للعودة. أحيانًا اضطررنا إلى قطع المسافة نفسها ونحن نحمل حقائب ظهر كبيرة عامرة بالمواد الغذائية المسلّمة. فهي أيضًا تُسلم عن طريق شاحنة الحليب وتوضع على منصة الحاويات.

في الوقت نفسه كان لدينا متسع من الوقت. لم نفكّر قط كم تبعد المسافة التي نقطعها على أقدامنا. كانت الأيام طويلة.

ويمكننا دائمًا السباحة في البحيرة في هينغسفاتينت، إما في الطريق إلى هناك أو في طريق العودة.

كان والداي مُدرسين، ما يعني أن لديهما إجازة صيفية لمدة شهرين. تغير هذا فجأة عندما بدأ والدي، أي جدّكم الأكبر، بعد فترة من الوقت في الاضطلاع بمزيد من المناصب الإدارية التي جعلت إجازته الصيفية أقصر بكثير. حينذاك يتحتم علينا أن نقضي إجازتنا في الجبل من دونه.

لإرسال رسالة مهمة إلى والدنا، أو طرح سؤال عليه، أو مجرد محادثته لأننا نفتقده، علينا أن نسير عدة كيلومترات إلى محطة

تلغراف القرية في الأسفل، والاتصال به من هناك. طبعًا لم تمتلك العائلة سوى سيارة واحدة، ومعظم الناس لم تكن لديهم ولا حتى سيارة واحدة، وأمّنا لا تحسن القيادة على أي حال.

في بعض الأحيان ذهبنا إلى الكوخ بالقطار، من أوسلو إلى محطة «أوول»، ثم إلى الجبال بوساطة شاحنة الحليب. وهذا الامتداد الأخير يبلغ حوالي عشرين كيلومترًا، وما زال كذلك. لكن عشرين كيلومترًا في شاحنة حليب خلال الخمسينيات والستينيات لم تكن مساوية لعشرين كيلومترًا في المركبات التي لدينا اليوم.

عشرون كيلومترًا على شاحنة الحليب كانت مفعمة بأحداث متنوعة. لن أقول إنها كانت مضيعة للوقت، لكن حافلة بالأحداث.

اعتادت أمي أن تتفق مع أبي مسبقًا، على اليوم الذي سيأتي فيه بالسيارة إلى أعلى الجبل، وسنجلس نحن الأطفال لساعات عند النوافذ المواجهة للجنوب ونبحث عن سيارة «د ك دبليو» الزرقاء على طريق المزرعة الذي يطل على البحيرة. ولم نشعر بالملل قطّ، لأننا بمجرد أن نلمح السيارة، نصبح متأكدين حوالي خمسين بالمئة أن القادم والدنا.

لم يستخدم السكان المحليون السيارات في ذلك الوقت. خلال الأسبوع، تبقى الخادمات بمفردهن في المزارع مع الأبقار والخنازير والدّجاج، والناس مكتفون ذاتيًا تقريبًا. يأخذ الرجال البقالة إلى زوجاتهم أيام السبت، ويفعلون ذلك بوساطة الأحصنة والعربات.

لم نكن نحن فقط من يقيم في كوخ. لذا عندما لا ننتظر والدنا، نرصد أحيانًا سيارات أخرى على الطريق، محاطة بسحابة من الغبار والرمال. وأحيانًا نجلس أمام البوابة عند الطريق المؤدي إلى القرية الجبلية، وإذا وصلت سيارة ما، أو غادرت، نهرع إلى فتح البوابة للسائق، ونكسب بعض النقود، ربما نصف كرونة. أما إذا كانوا «أميركيين»، فنحصل عادة على حلوى أمريكية. درجنا على تسميتهم بـ «الأمريكيين» لأنهم يعيشون في أمريكا، ويأتون بحلول العطلة الصيفية.

غير أننا في الواقع انتظرنا والدنا دائمًا. كقاعدة عامة، كان والداي يتفقان على وصوله قبل وقت النوم، أو على الأقل قبل الغسق. لكنه في إحدى المناسبات وصل بعد أربع ساعات مما خطط له مع والدتنا، وفي مناسبة أخرى بعد ست ساعات، وخشينا من أن خطبًا ما قد ألمَّ به. وآنذاك، تطمئننا أمّنا، ونحن بدورنا نطمئنها...

ثمة نوع من الأمور التي كانت من السيناريوهات الشائعة. في الصباح، تبثّ المحطة الإذاعية الرسائل والإعلانات للأشخاص المتنقلين، كالمخيمين على سبيل المثال، الذين قد يتعذّر الوصول إليهم عبر الهاتف لأيام أو أسابيع متتالية. يمكن أن تكون إحدى الرسائل النموذجية كالتالي: «لدينا رسالة لمالك سيارة فورد تونوس زرقاء، رقم تسجيلها A-67426 حاليًا هي في رحلة عبر ترندلاغ، لقد توفيت والدتك. فنكرر نحن أيضًا: هذه رسالة لمالك سيارة فورد تونوس زرقاء، رقم تسجيلها A-67426 حاليًا هي في رحلة عبر ترندلاغ، لقد توفيت والدتك.»

الزمن الجيولوجي

كل فرد منّا هو في الواقع ليس إلّا مجرّد زائر قصير الأمد في العالم، ولا نترك سوى بضعة آثار مؤقتة خلفنا، أشبه بالدوائر المتشكلة من سمكة تقفز عبر بحيرة جبلية هادئة.

التاريخ الكبير يخلّف أيضًا علامات، وهي علامات أعمق، كما تبين لي ذات صباح عند سفح جبل يسمى «رينسكارفت». وأنا ما زلت بعد في السابعة أو الثامنة من عمري.

كنا قد تسلّقنا المنحدر الحادّ من «راينستولن» إلى هضبة أشرفنا منها على منظر جوي للبحيرات والقمم الصخرية والوديان غير المشمسة.

لم تكن مشقة المضي هناك بصعوبة التسلق، بيد أنها كانت صعبة بما يكفي، لأنه لم تعد تحت أقدامنا أرض صلبة. فالحجارة في الرّكام الصخري الذي تدوسه أقدامنا غدت مفككة تمامًا، كما لو أننا نخوض طريقنا في الحصى.

أخبرني والدي أننا نسير على ركام جليدي، ولا بدّ من أنها المرة الأولى التي أسمع فيها كلمة «ركام جليدي».

منذ آلاف السنين، كانت هذه البقعة الشّاسعة مغطاة

بالجليد، وتلك الصخور التي سرنا عليها كانت قد انتزعت من الجبل، وترسبت كسلسلة عريضة من الرّكام تحت سفح الجبل شديد الانحدار. والبلاد بأكملها ولأكثر من مئة ألف عام، كانت مضغوطة تحت طبقة هائلة من الجليد...

ذلك اليوم الصيفي في أواخر الخمسينيات هو أول لقاء لي مع ما نسميه الزمن الجيولوجي.

في الوقت نفسه تقريبًا، بدأ «تشارلز ديفيد كيلينغ» يقيس ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي، من مرصد «ماونا لوا» في هاواي.

أظهرت هذه القياسات المستمرة، المأخوذة من عام 1958 إلى الآن، أن كمية ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي تتزايد، ولم يعد هناك أي شك في أنها ناتجة عن عملية الحرق البشري لمصادر الطاقة القائمة على الأحافير مثل النفط والفحم والغاز.

يؤدي الوقود الأحفوري إلى تفاقم تأثير الاحتباس الحراري، والذي يؤدي بدوره إلى احترار الكوكب شيئًا فشيئًا. وهذا أعطى العالم مقياسًا جديدًا للزمن. واستخدامه في السنوات من القرنين العشرين والحادي والعشرين وما بعد ذلك يمكن

ربطه بعدد الأجزاء في المليون (جزء في المليون) من ثاني أكسيد الكربون الموجود في الغلاف الجوي.

قبل الثورة الصناعية، عندما بدأ استخراج الكربون وحرقه بالفعل، كان هناك حوالي 280 جزءًا في المليون من ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي، وهو المستوى الذي ظل مستقرًا بشكل محيّر لمئات الآلاف من السنين. ثم زادت كمية ثاني أكسيد الكربون في الهواء من حولنا بوتيرة أسرع من أي وقت مضى، وهي اليوم 415 جزء في المليون. هذا يزيد بما يعادل تقريبًا خمسين بالمئة على المستوى الطبيعي لثاني أكسيد الكربون الذي كان موجودًا قبل بدء استخدام الوقود الأحفوري، وأعلى مستوى لثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي شهدناه منذ ملايين السنين.

مع هذه الجداول الزمنية، نحن الآن نتحدث حقًا عن الزمن الجيولوجي. عن ملايين السنين!

*

كوكب الأرض هو الجرم السماوي الوحيد في نظامنا الشمسي الذي نعرف على وجه اليقين أن فيه حياة. في العقود القليلة

الماضية، اكتشف علماء الفلك آلاف الكواكب الأخرى، في أنظمة شمسية أخرى، لكن إلى الآن ليس هناك دليل واضح على وجود الحياة. ويمكننا أن نفترض أن الحياة بالمعنى الكوني ربما هي حالة نادرة بشكل مذهل..

في الأرض، كانت هناك الظروف المناسبة لازدهار الحياة وتطورها. جوّها بارد بما يكفي وحار بما يكفي لتوافر الكثير من الماء الجاري، والماء الجاري هو أحد المتطلبات الأساسية للحياة كما نعرفها.

لو كان المدار الأرضي أقرب قليلاً من الشمس، لتبخر معظم ماء الكوكب؛ ولو كانت الأرض أبعد قليلًا عن الشّمس، لتجمدت المياه على سطح الكوكب.

نحن نعيش في كوكب يقع في محيط منطقة الشمس المعتدلة «المنطقة الذهبية» - ويعود هذا المصطلح إلى الحكاية الخيالية عن «الدببة الثلاثة والبنت ذات الشعر الذّهبي أو غولديلوكس.» غولديلوكس هي بنت انتقائية يصعب إرضاؤها تختار بين ثلاثة أوعية من عصيدة الدببة ما يناسبها تمامًا - معتدل السخونة ومعتدل البرودة - أي كما تريد بالضبط. وجه الشبه هنا هو أن ظروف الحياة في الفضاء صعبة الإرضاء مثل غولديلوكس. هناك عدد قليل جدًا من الكواكب الصخرية التي

تقع عند المسافة الضرورية من «نجمها»، لتتوافر فيها الظروف الملائمة لوجود الماء.

ولكن من ناحية أخرى: إذا حدث وصادف علماء الفلك في يوم ما كوكبًا يحتوي على محيطات عميقة، وجداول جارية وأنهار وبحيرات عظيمة - إنما بلا أي دليل على الحياة - فربما سيدهشهم ذلك أكثر من اندهاشهم بكوكب دافئ ورطب يعجّ بالحياة.

الأرض هي واحدة من ثمانية كواكب تدور حول الشمس، وهي نفسها واحدة من أكثر من مئة مليار نجم في مجرتنا، التي نسميها مجرّة درب التّبانة. ومجرّة درب التّبانة هذه هي ليست إلّا مجرّة واحدة من حوالي مئة مليار مجرّة أخرى في الكون - أو يجدر بي أن أضيف في هذا الكون.

يمكننا أن نعرف فقط عن هذا الكون، في الوقت نفسه يمكن أن يكون هناك عدد غير محدود من الأكوان الأخرى، وهذا ليس مستبعدًا على الإطلاق.

قد تبدو قوى الطبيعة الأساسية في هذا الكون مضبوطة بشكل مذهل من أجل كون مستقر أو «مستدام»، مكتظّ بالنجوم والمجرّات والذّرات والجُزيئات - ومع مثل هذه المرافق تتوافر فيه الظروف الأساسية للحياة أيضًا.

يمكن أن يُنظر إلى وجود الكثير من شروط الحياة على أنه أمر غامض للغاية. ولكن هذا هو المكان الذي نحن فيه. إذا لم نؤمن بالقوة الخلاقة الإلهية التي «صمّمت» كل شيء، بوسعنا أن نتخيل أن هناك عددًا لا حصر له من الأكوان لم تتحقق فيه الشروط الضرورية للحياة. إضافة إلى أنه لا يوجد «تدقيق عميق» عالمي مثل الذي نحن فيه الآن.

بدأ الكون (كوننا) بانفجار غامض، ما نسميه الانفجار العظيم، وما زلنا نعيش مع آثاره اللاحقة إلى اليوم.

ما كان هذا الانفجار في الواقع - أو لماذا حدث - لا أحد يستطيع أن يقول، على الأقلّ ليس بخصوص هذه المكوّنات. غير أن طاقة الانفجار ولّدت أصغر الأشياء التي يتكون منها الكون. نسميها «كواركات». وحينما برد هذا الكون الفتي، اندمجت الكواركات لتصبح بروتونات ونيوترونات، وبعد ذلك، نويات الهيدروجين والهيليوم.

الذّرات الكاملة، مع شحنات الإلكترون، لم تتشكل إلا بعد بضع مئات الآلاف من السنين ؛ وحتى في ذلك الوقت كانت فقط ذرات هيدروجين وهيليوم تقريبًا، وهي الأصغر في الكون. ثم على الأرجح اتّحدت الذّرات الأثقل خلال الجيل الأول من النجوم، وهو أقوى ما نسميه انفجارات المستعرات

الأعظم، وفي الغالب تشكّلت الذّرات الأثقل في الكون عندما تصادم نجمان نيوترونيان.

نشأت الروابط الكيميائية، التي نسميها الجُزيئات، في جميع أنحاء الكون. ثلاثة من الجُزيئات الأساسية للحياة على كوكبنا هي جُزيء الأكسجين (O_2) وجُزيء الماء (H_2O) وجُزيء ثاني أكسيد الكربون أو (CO_2). حوالي خُمس الجزيئات الموجودة في الغلاف الجوي هي جُزيئات الأكسجين، حيث يشكّل ثاني أكسيد الكربون ما يزيد قليلاً على 0.04 في المئة، أو بمعنى آخر 415 جزءًا في المليون التي ورد ذكرها سابقًا.

حدث الانفجار العظيم قبل 13.8 مليار سنة، ونشأ نظامنا الشمسي منذ 4.6 مليار سنة. لذا فإن عمر الأرض يغطي ثلث عمر الكون بالكامل. أشعر بسعادة بالغة لمجرّد التفكير في هذا، نيابة عن الكوكب، على الرغم من أن ذلك نيابة عني أيضًا جزئيًا.

في بادئ الأمر، كان الكوكب حارًا وبلون أحمر متوهّج. ثم وهو يبرد، ظهرت جُزيئات معقدة أو «جُزيئات ضخمة»، وكانت هذه هي أساس الحياة نفسها. في تلك المرحلة المبكرة من تاريخ الأرض، لم يكن هناك أكسجين حُر في الغلاف الجوي، ولا

طبقة أوزون تحمي الكوكب من أشعة الشمس فوق البنفسجية. لكن هذه كانت الشروط اللازمة لـ «حساء» الجُزيئات الضخمة «البدائي»، التي من شأنها أن تخلق أشكالًا بدائية من الحياة أو الخلايا الحية - وهو بالضبط ما حدث منذ أكثر من ثلاثة مليارات سنة.

نحن لا نعرف بالضبط كيف نشأت الحياة، ربما حدث ذلك في المحيط، ولكن من الممكن أيضًا أن مكوّنات الحياة جاءت إلى الأرض نتيجة اصطدامها بالأجسام الفلكية الأخرى ؛ من المعقول على الأقلّ أن الكثير من مياه الأرض قد جاء إليها هكذا، من مصدر خارجي.

من خلال عملية كيميائية تُسمى التمثيل الضوئي، بدأت الكائنات الحيّة وحيدة الخلية البدائية تنتج الأكسجين الحُر، أو O_2 الذي تعتمد عليه الحيوانات لتعيش. وبمرور الوقت، طوّر الكوكب أيضًا طبقة أوزون تحمي الحياة على الأرض من آثار الأشعة فوق البنفسجية الضارة.

أعتقد أنه من المفارقات الرائعة أن الظروف نفسها التي سمحت للحياة على كوكبنا بالازدهار والتطور إلى كائنات أكثر تعقيدًا - أي أن الغلاف الجوي يحتوي على أكسجين حُر وأن الكوكب محاط بطبقة أوزون واقية - لم تكن موجودة

عندما ظهرت الحياة لأول مرة. (خلال طفولة الكوكب، كان من المحتمل أن يتسبب الأكسجين الحُر الموجود في الغلاف الجوي بأكسدة لِبنات الحياة الأساسية قبل التمكّن من تكوين جُزيئات ضخمة معقدة، مثل الأحماض الأمينية. وكان من الممكن أن تقلّل طبقة الأوزون من الأشعة فوق البنفسجية، والتي هي ربما عامل مساعد مهم لظهور الحياة.)

لا توجد كائنات جديدة تمامًا في الأرض اليوم. آخر مرة حدث فيها ذلك كان منذ أكثر من ثلاثة مليارات سنة. وحتى آنذاك، ربما حدث مرّة واحدة فقط.

خلقت الحياة على الأرض جوًا يمنع أشعة الشّمس الحارّة كلّها من الانعكاس في الفضاء. هذا ما نسميه آثار الاحتباس الحراري. من دون هذا الغلاف الجوي، و«غازاته الدفيئة»، لكان الكوكب مكانًا أكثر برودة ونوعًا ما مزعجًا للحياة كما نعرفها.

لذا فإن تأثير الاحتباس الحراري طبيعي وليس من صنع الإنسان. أحد أهم غازات الاحتباس الحراري هو ما نسميه ثاني أكسيد الكربون. ونحن بفضله لا نتجمّد حتى الموت، على الرغم من أنه يتزايد الآن بسرعة كبيرة نتيجة للنشاط البشري

الذي يتسبب في الاحترار العالمي، أو تغير المناخ الذي يسبّبه الإنسان.

هذا أيضًا فيه نوع من التناقض: لولا تأثير الاحتباس الحراري الطبيعي، لكان الكوكب يشبه كرة ثلجية هامدة، لأن سطح الأرض سيغدو أبرد بمقدار 33 درجة مما هو عليه اليوم! ومع ذلك، نتيجة ما سبّبه الإنسان، وتزايد تأثير الاحتباس الحراري المتوسط نسبيًا، يمكن أن تصبح أجزاء من الكوكب في غضون سنوات قليلة غير صالحة للسكن بسبب ارتفاع درجة الحرارة.

تستخرج النباتات ثاني أكسيد الكربون من الهواء بوساطة عملية التمثيل الضوئي وتحوّله إلى مادة نباتية يمكن أن تأكلها الحيوانات، بينما يُطلق الغاز نفسه مرة أخرى في الهواء عندما تزفر الحيوانات، وأيضًا أثناء تحلل المادة العضوية، عندما تتعفن على سبيل المثال. ينتج التمثيل الضوئي أيضًا الأكسجين الحُر، أو O_2، الذي يحتاجه الإنسان والحيوان من أجل التّنفس. بهذه الطريقة، تساهم عمليات الحياة في الحفاظ على التوازن الطبيعي للكربون.

هذا التوازن موجود أيضًا في الطبيعة الجيولوجية. العمليات الجيوفيزيائية مثل الانفجارات البركانية، تطلق ثاني أكسيد

الكربون في الغلاف الجوي. بينما في الوقت نفسه، يُعاد ثاني أكسيد الكربون إلى قاع البحر من خلال عمليات التجوية البطيئة وترسّب المواد العضوية الميتة، ويصبح في النهاية جزءًا من قشرة الأرض. كانت هذه دورة شبه ثابتة لمئات الآلاف من السنين، ولم يكن للإنسانية (حتى وقت قريب) أي تأثير عليها.

لقد استخدمت كلمات مثل «دورة» و«توازن الكربون». لكن الآن تسلّل شيء ما وعطّل هذه الدورة، أو هذا التوازن، وفعل ذلك بقوة شديدة. وأنا هنا أفكّر في الكربون كلّه من بقايا النباتات والحيوانات القديمة، والتي ظلت على مدى ملايين السنين محفوظة في قشرة الأرض على شكل زيت وفحم وغاز، أي باختصار «رابضة» ونتيجة لذلك أُزيلت من الدورة.

منذ ملايين السنين، كان احتياطي الكربون هذا موجودًا هناك، وبعد ذلك، بين عشية وضحاها تقريبًا، قام البشر باستخراجه وإشعال النار فيه، وإطلاق ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي. وقد تسبب هذا باختلال فجائي في التوازن، وخرق للدورة. يوجد الآن المزيد والمزيد من ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي - كما أوضح كيلينغ من خلال قياساته - وحرارة الكوكب لا تتوقّف عن الازدياد أكثر فأكثر.

على الرغم من أن كمية انبعاثات ثاني أكسيد الكربون التي يسبّبها الإنسان هي مجرد جزء بسيط من الكمية المتداولة بشكل طبيعي، إلا أنها تولّد نفايات أكثر مما يمكن امتصاصه وحبسه في قشرة الأرض بطريقة طبيعية. وبدلاً من ذلك، يتراكم ثاني أكسيد الكربون ببساطة في الغلاف الجوي - وفي المحيط.

هذا مثل السّعرات الحرارية في نظام المرء الغذائي. إذا أكل أكثر بقليل مما يحتاجه جسمه ليعمل في اليوم - كعكة صغيرة أو بسكويت بالشوكولاتة على سبيل المثال - فلن يلبث وزنه أن يزداد شيئًا فشيئًا. وثاني أكسيد الكربون يُطلق في الغلاف الجوي بالطريقة نفسها. يوميًا يطلق البشر كمية من ثاني أكسيد الكربون أكثر بقليل مما يستطيع الكوكب التعامل معها، وأكثر بكثير مما تتطلبه الطبيعة لتؤدي وظائفها، مثل الحفاظ على النباتات والأشجار حيّة.

نحن نتحدّث عن احتياطيات ضخمة من الكربون، والتي قضت عمليات الكوكب الطبيعية ملايين السنين في استخراجها من الهواء وتخزينها في قشرة الأرض. ولكن بعد ذلك، في غضون مئتي عام فقط، استنفدنا الكوكب من هذه الاحتياطيات، وحرقناها كما لو أنه ليس هناك غد، وبقيامنا

بذلك أطلقنا غازات الاحتباس الحراري في الغلاف الجوي. في البداية كنّا غافلين عن الضّرر الذي نلحقه بطبيعة العالم، لكننا في النهاية أصبحنا مدركين لما نفعله.

يمكن قول الشيء نفسه عن إدارتنا غير المناسبة للمناطق الطبيعية في العالم. فالغابات والمستنقعات والأراضي الرطبة تمتص أيضًا كميات هائلة من الكربون، تمامًا كما تفعل في منطقتنا المناخية الشمالية. تُعدّ الغابات الاستوائية المطيرة في الواقع من بين أكبر أحواض الكربون على الأرض. هي كذلك في وضع خاصّ بالنّظر إلى ثروة الأنواع النباتية والحيوانية الفريدة وغير القابلة للتعويض التي تعيش فيها.

في الوقت الحالي، وأعني بذلك عام 2021، هناك إجماع عالمي واسع النطاق على الضرورة القصوى لوقف جميع انبعاثات غازات الاحتباس الحراري من أجل مصلحة البشر، وكم أنه من الملحّ التوقّف عن حرق الغابات المطيرة في العالم. لكن لا يرغب الجميع في الإسهام بهذه الجهود المشتركة. هناك أقلية صغيرة تقول إنها لا «تؤمن» بالتغير المناخي الذي من صنع الإنسان. وهذه الأقلية تسمي الحقائق «أخبارًا كاذبة». أو كما قال أحدهم بينما ما يزال سياسيًا رفيع المستوى: «أنا لا أؤمن بتغير المناخ على يد الإنسان، لأنه إذا كانت هناك أي حقيقة فيه، لفعل السياسيون شيئًا حيال

ذلك ...» يمكن أن يُدعى هذا النوع من الكلام بالحلقة المفرغة، ويستحق أن يوصف بأنه «منطق دائري».

يعتقد العديد من علماء المناخ أن الاكتفاء بوقف انبعاثات غازات الاحتباس الحراري لن يكون كافيًا. فالوضع محفوف بمخاطر جمّة بحيث يتعين علينا أيضًا العثور على طرق لانتزاع الكربون من الغلاف الجوي.

بعبارات ليست كثيرة: كان هناك مخزون ضخم من الكربون منذ ملايين السنين، ضمن احتياطيات العالم من النفط والفحم والغاز، كانت تتشوق إلى أن تُحرق وتُطلق في الغلاف الجوي. ومنذ نهاية القرن الثامن عشر، ما فتئ الوقود الأحفوري يغرينا مثل الجني الكامن في مصباح علاء الدين. «حرروني من المصباح»، همس الكربون، «وسأخدمكم وأجعلكم أغنياء وأقوياء!» فوقعنا في الفخ. الآن نحاول إرغام الجني ليعود إلى المصباح. بيد أن هذا ثبت أنه أصعب بكثير من إطلاق العنان لهذه القوى العظمى في المقام الأول.

إذا شُفط النفط والفحم والغاز كله الذي ما زال موجودًا في هذا الكوكب، وأطلِق في الغلاف الجوي، فلن تنجو حضارتنا. مع ذلك، من غير المحتمل أن يحدث هذا، لأنه يوجد اليوم التزام

دولي واسع لتغيير قطاع الطاقة جذريًا، وربما في النهاية، كلّ ما نربطه «بالنزعة الاستهلاكية» أيضًا.

في الوقت نفسه: بينما أكتب هذا، ما زال العديد من الدول ورؤساء الدول يرون أن من حقهم المُطلق استخراج وحرق الوقود الأحفوري برمته المتاح في داخل أراضيهم الوطنية. قد نسأل بعد ذلك: لماذا لا تتمتع دول الغابات المطيرة بالحقّ المُطلق في أن تفعل ما يحلو لها بغاباتها المطيرة؟ مكتبة سُر مَن قرأ

ما الفرق الذي يحدثه ذلك؟ ما الفرق الذي يحدثه من حيث توازن الكربون العالمي؟ وما الفرق الذي يحدثه من حيث فقدان الأجناس النباتية والحيوانية المختلفة؟

الإشارات اللاسلكية

لغاية الآن لم نعثر على أي علامة تدلّ على وجود حياة في أي جرم سماوي غير كوكبنا. طبعًا هذا لا يعني عدم وجود أشكال حياة بدائية. وليس من المستبعد على الإطلاق أن نجد في أحد الأيام أشكالًا بدائية للحياة في مكان ما قريب كقرب القمر في نظامنا الشمسي، إذا لم نكن قد وجدناها بالفعل على سطح المريخ. إن البحث عن الحياة المجهرية في جوارنا القريب لم يبدأ إلّا توًا.

ولكن حتى بعد سنوات من الاستماع إلى الكون في كلّ اتجاه ممكن، لم نكتشف أي إشارات لاسلكية من حضارات بعيدة.

إذا كنا وحدنا تمامًا هنا «في الوقت الحالي»، فمن الممكن بالطبع تصور وجود حضارات ذكية في بضع جزر متناثرة خلال الزمن أثناء وجود المجرة، قبل أن تكون هناك إنسانية قادرة على استقبال الإشارات من هناك.

يجب علينا كي نواجه شيئًا ما، كما رأينا، أن ننجح بدقة في الوصول إلى الإشارة في كل من الزمان والمكان، وبناءً على

التجربة المحلية، ليس هناك سبب يجعلنا نسلّم بفكرة أن الحضارات الذكية ستستمر لأكثر من بضع عشرات الآلاف من السنين، التي هي بالمقياس الكوني ليست سوى لحظة.

علاوة على ذلك، قد يكون من المعقول افتراض أن أي حياة ذكية في مجرّتنا ستعتمد على روابط الكربون، تمامًا كما هي الحياة في الأرض. في مجرّة درب التّبانة على الأقل، يوجد فائض من الكربون والماء، وحيثما توجد حياة قائمة على الكربون، ستتشكل رواسب كبيرة من الكربون الأحفوري، عاجلاً أو آجلاً.

لذلك من أجل الوصول إلى مستوى تكنولوجي معين، من الإنصاف تخيّل أن الحضارات البعيدة ربما مرّت أيضًا - أو خضعت - لأزمة الغلاف الجوي، مثل أزمة المناخ التي نعيشها الآن على كوكبنا. لأنه حتى هناك، قد تكون الكائنات الذّكية قد استخدمت الوقود الأحفوري في سعيها لتصبح حضارة عالية التقنية قادرة في النهاية على إرسال إشارات لاسلكية إلى الفضاء.

لكن لماذا لم نتلق أيًا من علامات الحياة هذه؟ هل من الممكن أن تكون هناك علاقة بين هذا وحرق الوقود الأحفوري هناك أيضًا، وإذا كان الأمر كذلك، أيعني أنه ينطوي على

سلسلة كاملة من الأغلفة الجوية المؤذية؟

هذه الفكرة الفاحصة تخمينية وبلاغية. المقصود منها ببساطة توضيح النقاط التالية: كلما قلّت قدرتنا على إثبات أنفسنا في العناية بغلافنا الجوي، وحضارتنا، قلّ بالمقابل توقّعنا اكتشاف إشارات من حضارات أخرى في الفضاء ...

وبذلك أعطي الكلمة لكم يا أحبابي ليو وأوروورا ونوح وألبا وجوليا وماني. بينما أجلس أمام شاشة جهاز الكمبيوتر الخاص بي في هذا اليوم الربيعي الجميل في عام 2021، هناك الكثير الذي أودّ التحدث عنه معكم ومناقشته بمزيد من التفصيل، وبشكل خاص معك يا صغيري ماني عندما تغدو في يوم ما واعيًا بما يكفي لتفكّر وتعبّر عما يجول في رأسك. (طلب آخر لإجراء مثل هذه المحادثة سيكون طبعًا وأنا ما زلت موجودًا.)

كيف تسير الأمور على طول الطريق، أعني مع مزيد من التّوغل في القرن؟ أحدثَ تقدّم عظيم في البحث عن حياة خارج كوكب الأرض؟

إذا عُثِر على نوع من الكائنات الحيّة البدائية في أحد أقمار المشتري على سبيل المثال، فسأعتبره اكتشافًا علميًا فريدًا، لأنه سيعني أننا لم نعد بمفردنا. في حال كان هناك ما يصل

إلى حدّ وجود تذكرتي يانصيب فائزتين (أي لوجود الحياة) في نظامنا الشمسي، فلا بد من أن ثمة احتمالات جيدة بأن الحياة ليست ظاهرة فريدة كما درجنا على الاعتقاد سابقًا ؛ وأن هذا هو المعيار، وأن الكائنات الحية يجب أن تكون موجودة حتمًا في عدد لا يحصى من الأجرام السماوية الأخرى في مجرتنا. لأنه، كما ذكرتُ من قبل: لقد أصبحنا على دراية بمثل هذه الأماكن مؤخّرًا فقط. وبينما أنا منكب على كتابة هذا، جرى اكتشاف حوالي أربعة آلاف مما يسمى بالكواكب الخارجية، أي الكواكب التي تدور حول نجم غير شمسنا.

بوسعي تخيّل أن هذه الكلمات قد تُقرأ في فترة متأخّرة من نهاية القرن الحادي والعشرين، ربما بعد 70–80 سنة من رسالتي لكم. فما هو الوضع الآن؟ أجاءت أي إشارة تدل على وجود حياة من الفضاء الخارجي؟

أنا لا أسأل ما إذا كنتم قد شاركتم في أي محادثة بسيطة مع الحضارات الفضائية، لأنه مع المسافات الشاسعة – والطريقة المزعجة في بطء انتقال الضوء – قد تضطرون إلى الانتظار بضع مئات أو آلاف السنين بين كل تبادل كوني للمعلومات.

في بادئ الأمر، ستحصلون على مكالمة من مسافة 10000 سنة ضوئية، والتي قد تكون شيئًا مثل: «مرحبًا، هل يوجد أحد هناك؟» وبعد ذلك تردّ البشرية بنوع من لغة الاسبرانتو الكونية «نعم! نحن هنا!» وذلك بمجرد تسلّم الرسالة. ردكم سيصل إلى الحضارة خارج كوكب الأرض بعد حوالي 20000 عام من اتصالهم بنا في البداية، ثم بعد 10000 عام فقط قد تحصلون على ردّ على ردّكم. لذلك، سوف يستغرق الأمر 30 ألف عام لقول «مرحبًا، هل من أحد هناك؟» «نعم! نحن هنا! عظيم! ما رأيكم أن نلعب معًا؟»

هل ستكون حضارتنا فعّالة طول هذه المدة؟ هل سيستخدم أحفادنا في المستقبل البعيد لغة تشبه أي لغة نتحدث بها في كوكبنا اليوم؟ هذا سؤال مهم.

إن التواصل مع الحضارات في الفضاء الخارجي سيكون مشروطًا بقدرتنا على التواصل مع أحفادنا، وكلما كانت حضارة ما أكثر بعدًا عن كوكب الأرض، يجب أن يطول وجود حضارتنا حتى يتسنى لنا التواصل معها.

هذا يذكّرني بحكاية عن ثلاثة حطابين فنلنديين يجلسون في كوخ خشبي يحتسون الفودكا. بعد ساعة يرفع أحدهم كأسه ويقول: «نخبكم!» تمرّ ساعة أخرى ويرفع الحطاب الثاني كأسه

ويرد على النخب الأول: «نخبكم!» ثم بعد ساعة أخرى، يقول الصديق الثالث بوجه متجهم: «هل جئنا إلى هنا لنشرب أو لنتفوه بالهراء؟»

على أي حال! هل تلقيتم في نهاية القرن الحادي والعشرين أي علامة تدلّ على وجود ذكاء خارج كوكب الأرض؟ هذا هو سؤالي. وإذا لم يكن الأمر كذلك، هل يأتي الفلاسفة والفلكيون لديكم على ذكر شيء عن ذلك؟

لعله يجدر بي أن أبدأ من جديد وأسأل بأكثر الطرق انفتاحًا: هل لديكم أي شيء تقولونه عن نهاية القرن الحادي والعشرين تعتقدون أنه سيُدهش أو يصدم أو يسعد الجد الذي جلس أمام شاشة الكمبيوتر وكتب لكم قبل 70 أو 80 سنة؟

قولوا ما لديكم! لا يهم إن لم أستطع سماع ما تقولونه. قولوه في جميع الأحوال! سنُجري على الأقل نوعًا من المحادثات أخيرًا، على عكس أولئك الحطابين في الكوخ الخشبي.

عندما كنتم أطفالًا، كنت أحيانًا أسألكم عن أحوالكم، فتجيبونني بقدر ما تستطيعون، حتى على الرغم من كونكم بالغي الصغر، في بعض الأحيان لا يتعدى الجواب نخرة من الأنف أو شمّة. بل حتى قبل ذلك، وأنتم غير قادرين بعد

على النطق مطلقًا، مثلك يا صغيري ماني تمامًا وأنا أكتب هذا بطبيعة الحال، كنت أعرف أنكم لا تستطيعون استيعاب كلمة واحدة مما أقوله، ولكن ذلك لم يكن من أجل لا شيء، لأنه كان بإمكانكم في أدنى الأحوال سماع صوتي.

الآن الوضع مختلف. ما عدتم تستمعون إلى صوت جدكم. غير أنه يمكنكم - بمساعدة اللغة المكتوبة - فهم ما أسألكم عنه. أريد أن أعرف كيف تسير أموركم، تمامًا كما درجتُ أن أفعل من قبل. لا أريد سوى أن أعرف كيف حالكم!

هذا على الرغم من أنني أنا، طبعًا، الذي لن يكون قادرًا على فهم ردكم.

نحن في هذه الحالة نكون قد تبادلنا الأدوار تقريبًا.

قبل كل شيء، يقودني تفكيري نحو طريقة سير الأمور في كوكبنا. في كوكبي. لأنه ملكي أيضًا، أصرّ أنه ما زال ملكي. أريد أن أبقى وفيًا لما عشته وأنا مراهق غير سعيد في أعماق الغابة: أنني لست في هذا الكوكب فحسب، بل أنا هذا الكوكب. الانتماء إلى الأرض هو حقي الطبيعي...

ما مقدار ثاني أكسيد الكربون الموجود في الغلاف الجوي الآن، أي وأنتم تقرؤون هذا؟ وكم ارتفع متوسط درجة حرارة الأرض؟

كان هدفنا، الذي وضعناه نصب أعيننا قبل خمسة عشر عامًا من هذا القرن، ألا يزيد على درجتين مما كان عليه عندما بدأ استخدام الوقود الأحفوري. كانت هناك اتفاقية عالمية، سُميّت اتفاقية باريس، وقد اعتُمِدت في 12 كانون الثاني 2015. فهل يا ترى التزمنا بها؟ أم ارتفعت درجة الحرارة بشكل كارثي ثلاث أو أربع أو خمس درجات؟

لذا أخبروني رجاءً! كيف غيرت ظاهرة الاحتباس الحراري المناخ؟

ما هو الوضع الحالي للغطاء الجليدي في غرينلاند؟ أو الجليد في القارة القطبية الجنوبية؟ كم ارتفع مستوى سطح البحر؟ وماذا يعتقد علماء أواخر القرن الحادي والعشرين أنه سيحدث بعد ذلك؟ أهناك خطر من ذوبان الغطاء الجليدي بأكمله في غرينلاند؟ هل هذه العملية الجيوفيزيائية الخبيثة أصبحت جارية فعلًا؟

ما عدد الجزر في المحيط الهادئ التي هُجِرت؟ أعلموني فحسب! ما هي المناطق الساحلية التي ابتلعها البحر؟ وماذا عن المدن الساحلية كلّها؟ ماذا حدث لها؟

أكانت هناك أي انهيارات مهلكة للأنظمة البيئية؟ ماذا تبقى من الزراعة في العالم - في أفريقيا السوداء على سبيل

المثال؟ ما هو الوضع المتعلّق بالأمن الغذائي العالمي؟

هل ما زالت هناك حيوانات برية وظباء وفيلة وزرافات وأسود ونمور تجوب السافانا الأفريقية؟ أما زالت الهجرة الكبرى بين سيرينجيتي وماساي مارا تحدث؟ أو هل ظهرت أي ثقوب قبيحة في تلك الفسيفساء الرائعة؟

ماذا عن الشمبانزي والغوريلا؟ أو القردة العليا في أدغال سومطرة وبورنيو؟ (لأنني لا أتحدّث عن الحيوانات التي في الأسر، بل عن الأدغال. مؤكّد أنني لا أتحدّث عن الحيوانات في الأسر!)

وبالمناسبة، ما أخبار الأمازون؟ لا تأتوا إليّ وتقولوا: نعم نحن بخير، لكن الغابات المطيرة الضخمة في أمريكا الجنوبية اختفت، وتحولت إلى سهول عشبية لا نهاية لها، إلى مروج شاسعة، إلى منطقة رعاة بقر جديدة ...

والبحر؟ كم أصبح حمضيًا الآن؟ كيف تبدو الشّعاب المرجانية؟ وماذا عن المخزون السمكي؟

ماذا عن تيّار الخليج؟

ثم هناك شيء آخر يجب أن أسأل عنه: هل جرت أي حرب نووية إقليمية أو عالمية خلال هذا القرن؟

كيف بدأت؟ وماذا حدث للدول والنّاس المتورطين فيها؟

لا ، لا أجرؤ على السؤال!

أنا سعيد لأنني لا أستطيع سماع إجاباتكم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

لا أعتقد أن المؤلفين يجلسون عادة ويقرأون كتبهم بأنفسهم. أنا على الأقل لم أفعل ذلك قطّ. فأي كتاب يُقرأ عدّة مرات قبل نشره، ثم منذ وصوله إلى النّشر، يكون الأوان قد فات لإجراء أي تعديلات على النّص.

لكن، حدث أن جلست مرة وراجعت بعمق أحد كتبي، «عالم صوفي»، الذي وضعت له العنوان الفرعي التّالي «رواية عن تاريخ الفلسفة.»

كان هناك شيء أحتاج إلى العثور عليه فيه، وعندما لم أجد ما بحثتُ عنه، تصبّب مني عرق بارد. وهذا صحيح في الواقع، بدا لي كما لو أن مساحة كبيرة فارغة قد فُتحت في داخلي، وفي النهاية اضطررت إلى الإقرار بأن هناك سؤالًا فلسفيًا مهمًا لم أتطرق إليه حتى. وربما هو الأهمّ على الإطلاق.

هل الأسئلة الفلسفية متماثلة بغضّ النّظر عن وقت طرحها؟ جوابي هو نعم ولا. أسئلة عديدة عن طبيعة الكون ومكاننا فيه صمدت لآلاف السنين في التأمل البشري. ثمة شيء عن

العالم بحدّ ذاته يرغمنا على أن نكون فلسفيين. فالبشر لن يتوقّفوا أبدًا عن التساؤل عن كنه وجودهم.

بيد أنه في بعض الأحيان تظهر أسئلة جديدة تمامًا بسبب التغييرات الجذرية التي تحدث من حولنا - في المجتمع والعلوم والتكنولوجيا. أحد الأمثلة على ذلك هو الذّكاء الاصطناعي. هل سيكون جهاز الكمبيوتر قادرًا، أو الشبكة الحاسوبية، على امتلاك وعي عام أو وعي ذاتي، وفي هذه الحالة ربما ينشأ لدى هذا الذّكاء الاصطناعي شعور بالقلق أو الخوف أو الفرح أيضًا؟ وإذا وُجدت هذه المشاعر، فما هي الحماية أو الحقوق القانونية، التي ينبغي منحها له؟

لدينا كذلك العديد من الأمثلة المتعلّقة بالمشكلات الفلسفية التي حلّتها العلوم الطبيعية بشكل أو بآخر. لقد أجاب علماء الأحياء منذ زمن بعيد على الأسئلة التقليدية القديمة مثل من ماذا تتكوّن الكائنات الحيّة. وبما أن جُزيء الحمض النووي وُصِف في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي، فإن طريقة انتقال خصائص الكائنات الحيّة بين الأجيال لم تعد لغزًا كبيرًا. كانت هذه أسئلة فكّر فيها الفلاسفة الأوائل مثل أفلاطون وأرسطو، وفعلوا هذا لسبب وجيه.

غير أنه ما زال لدينا أشياء كثيرة لنتفلسف بشأنها. أمور هي

في فئة خاصة بها. أسئلة أخلاقية، مثل: ما هي أهمّ القيم التي يجب أن تكون في الحياة؟ ما هي العدالة؟ ما هي الحقوق التي يملكها الإنسان والحيوان؟ هل للمناطق ذات الطبيعة البكر أي حقوق؟ وبالقدر نفسه: ما هي أفضل الأنظمة الاجتماعية؟

من المؤكد أن السؤال الفلسفي الأهم في عصرنا هو: كيف يمكننا الحفاظ على الحضارة الإنسانية، وعلى أسس الحياة على الأرض؟

هذا هو السؤال الذي غفلتُ عنه في الرواية الفلسفية التي كتبتها آنفًا في عام 1991. وعندما اكتشفتُ ذلك، تصبّب مني عرق بارد. إذ كيف يمكن أن أكون على هذه الدرجة من العمى؟

عندما أقول أهم سؤال فلسفي في عصرنا - ما أعنيه بـ «عصرنا» هو العصر بأكمله الذي بدأ في لحظة إبصاري النّور، والذي في أدنى الأحوال سيستمر لبقية هذا القرن. كما ذكرتُ في البداية: سأقول بلا أي تردد، أن هذه الـ 150 عامًا قد تكون من بين السنوات الأكثر أهمية في وجود البشرية، ومن ضمنها تاريخ كوكبنا أيضًا.

يجب أن يتحمّل جيلي وجيل أطفالي الكثير من المسؤولية لمعرفة السبب بأن مستقبل الكوكب ليس أكثر أمانًا مما هو عليه

الآن. ثم حينما ينمو الجيل التّالي، سيتحتم عليه أن يرث جزءًا من هذه المسؤولية نفسها. لكن من ناحية أخرى، بوسعي تخيّل أنه بحلول مطلع القرن الثاني والعشرين من الممكن أن تكون بعض أكبر التّحديات تحت السيطرة وفي طريقها إلى الحل.

واجهت الإنسانية في الماضي مشاكل استغرقت عدّة أجيال لحلها، وهذه رسالة يكتبها الجدّ لأحفاده.

إذًا، كيف نستطيع ضمان مستقبل الحضارة وأسس الحياة على الأرض؟ في الواقع، هذا يتعلّق بأكثر من سؤال.

إنها أولاً مسألة أخلاقية، لأنني أرى أنه من واجبنا نحن البشر توفيرها لأحفادنا ومستقبل حضارتنا. ولاحقًا سأعود في هذه الرسالة إلى السؤال عن سبب إيماني بهذا. لدينا أيضًا التزام أخلاقي يتعلّق بحماية الظروف التي تسمح لأنواع أخرى غير أنواعنا بالعيش. نحن الذين ندمّر حاليًا التّنوع البيولوجي في هذا الكوكب. نحن الذين هنا الآن.

طبعًا، للسؤال بُعد سياسي أيضًا. إذ لا يكفي أن يرغب الفرد أو المجتمع أو الإنسانية نفسها في شيء ما. السؤال هو، في أبسط حالاته: ما الذي نحتاجه، أو ما الذي يجب القيام به؟ كيف نحقّق ما نريد؟ ما هي الآليات المطلوبة؟ ما هي التغييرات الاقتصادية التي ستكون ضرورية على الصّعيد العالمي، وكيف

ستُنفّذ؟ كيف يمكننا إنشاء توزيع أكثر عدلاً لموارد العالم؟ ما هي الامتيازات التي سيتخلى عنها سكان أغنى دول العالم وأكثرها ثراءً بالموارد - وهل سيكون ذلك طوعًا أم بالقوة؟ هل التغييرات الضرورية قابلة للتوفيق بأي حال مع سعي الرأسمالية النّهِم إلى تحقيق المزيد من الربح؟

نحن، بينما أنا أكتب هذا الآن، نعيش وسط وباء لا مثيل له في العصر الحديث. علينا أن نعود مئة عام إلى الوراء، إلى الإنفلونزا الإسبانية، لنعثر على أوجه التشابه. ولكن خلال العام الماضي رأينا أيضًا كيف كان على الجميع، من المجتمعات والأمم الصغيرة والمحلية، إلى المجتمع العالمي نفسه - الإنسانية كلّها في الواقع - أن تتضافر جهودهم للعمل بشكل جماعي لاتخاذ التدابير الضرورية وتنظيم الجهود المشتركة. لقد كان الأمر أيضًا يتعلّق بالموازنة بين الرغبة والإكراه، ذلك التوازن الضئيل الذي لمسته.

*

كان أحد الأسس المهمة للأخلاق كلّها هو «القاعدة الذهبية» أو مبدأ المعاملة بالمثل: عليك أن تتصرف مع الآخرين كما تحبّ

أن يتصرفوا معك. بيد أن القاعدة الذهبية لا يمكن أن يكون لها بُعد أفقي بحت - كما هي الحال في «نحن» و «هم». لقد بدأنا ندرك أن مبدأ المعاملة بالمثل له بُعد رأسي أيضًا ؛ أي يجب أن نفعل للجيل القادم ما أردنا أن يفعله الجيل السابق من أجلنا.

إن الأمر بهذه البساطة. يجب أن يحبّ المرء جاره كما يحبّ نفسه، غير أن هذا طبعًا ينبغي أن يشمل الجيل القادم. ينبغي أن يشمل حتمًا كل من سيعيش على هذا الكوكب بعدنا.

البشر في الأرض لا يعيشون في وقت واحد. الجنس البشري لا يعيش كلّه في وقت واحد. كان هناك بشر قبلنا، وبعض البشر يعيشون هنا الآن، وبعضهم سيعيش هنا بعدنا. وأولئك الذين سيعيشون هنا بعدنا هم إخواننا في البشرية أيضًا. وعلينا أن نتصرّف معهم كما كنا نريدهم أن يتصرفوا معنا، لو أنهم عاشوا هنا قبلنا.

إنها شيفرة بغاية البساطة. بعبارة أخرى، غير مسموح لنا أن نمرّر لغيرنا عالمًا لا تقلّ قيمته عن العالم الذي سُمح لنا نحن أن نعيش فيه. حيث سيكون السمك في البحر أقلّ. ومياه الشرب أقلّ. وكميات الطعام أقلّ. والغابات المطيرة أقل. والشّعاب المرجانية أقلّ. وأنواع النباتات والحيوانات أقلّ...

جمال أقلّ! روعة أقلّ! وفرح وسرور أقلّ!

خلال القرن العشرين، أصبح من الواضح بشكل متزايد أن شعوب العالم تعتمد على بعض الاتفاقيات والالتزامات التي تتخطّى الحدود القومية. كان الإنجاز المهم لمثل هذه الأنظمة القانونية الدولية هو الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة في عام 1948، والذي ربما يمثّل أعظم انتصار للفلسفة والأخلاق حتى وقتنا الحاضر. لأن حقوق الإنسان لم تُمنح لنا من قبل قوى أعلى. ولم تُنتزع من العدم أيضًا. وقد شكّلت مفترق طرق في عملية نضج استمرّت ألف عام.

سيكون أحد أهم الأسئلة في القرن الحادي والعشرين هو إلى متى يمكننا الاستمرار في الاعتماد على ثروة الحقوق التي نمتلكها، من دون قبول أي من التزاماتنا الأساسية في الوقت نفسه. ربما نحتاج إلى دستور جديد يتخطى حدود القومية. فالوقت قد حان لإعلان دولي عن الالتزامات الإنسانية. إحدى الدلائل على أن هذا المنظور يكتسب زخمًا ببطء هي أهداف التنمية المُستدامة للأمم المتحدة.

لم يعد من المنطقي التركيز فقط على حرياتنا وحقوقنا الفردية من غير التركيز بشدّة في الوقت نفسه على مسؤوليات كل دولة وكل فرد، وبوجه خاص مسؤوليتنا في حماية حقوق الأجيال القادمة، وهذا يشمل مسؤوليتنا تجاه كوكبنا الذي نعيش فيه –

الكوكب الذي رآه رواد فضاء أبولو 8 على أنه «شروق الأرض» عندما دارت مركبتهم الفضائية نحو الجزء الخلفي من القمر، أو النقطة الزرقاء الباهتة التي التقطت فوييجر 1 صورة لها من الحافة البعيدة للنظام الشمسي.

إن إنقاذ أساسيات الحياة على هذا الكوكب بنجاح، سيتطلب تحولًا كوبرنيكيًا (أي جذريا وشاملًا، نسبة إلى عالم الفلك كوبرنيكوس) في طريقة تفكيرنا. من السّذاجة الاعتقاد بأن جميع الأجرام السماوية تدور حول كوكبنا، من السذاجة أيضًا أن نعيش كما لو أن كلّ شيء يدور حول عصرنا. إن وقتنا ليس أكثر أهمية من وقت أولئك الذين سيأتون بعدنا. بالنسبة إلينا، بطبيعة الحال، لوقتنا أهمية قصوى. لكن لا يمكننا أن نعيش كما لو أن وقتنا سيكون الأهم بالنسبة إلى أولئك الذين سيأتون بعدنا.

لا شيء أناني في أن يحبّ المرء حياته التي يعيشها طبعًا. غير أن علينا احترام حياة أجيالنا القادمة مثلما نحترم حياتنا. هذا هو الدور الكوبرنيكي المتعلّق بوصية المحبة.

نتيجة للجهود الفردية والعلاقة بين الأمم، استطعنا الانبثاق من «حالة الطبيعة» التي تتميز ببقاء الأصلح. لكننا مع ذلك

في حالة من الفوضى المظلمة عندما يتعلق الأمر بالعلاقات بين الأجيال.

ربما كانت وجهة نظر مركزية الأرض في العالم ساذجة. لكن أليس في الأمر مزيد من السذاجة أن نعيش كما لو أن هناك كواكب أخرى بانتظارنا لنجني ثمارها أكثر من هذه التي نتشاركها حاليًا؟

يجب أن يكون الأمر متروكًا للفرد ليحظى بحياة إيمان، ويجب أن يكون الأمر متروكًا للفرد ليأمل في ظهور منقذ لهذا العالم. في الوقت نفسه لا يمكننا أن نفترض أن سماءً جديدة وأرضًا جديدة تنتظرنا. ومن المشكوك فيه أيضًا أن أي قوة خارقة للطبيعة ستجلب في وقت ما «يوم القيامة». لكن من المؤكّد أنه في يوم ما سيحاكمنا المتحدّرون من صلبنا.

ترتبط أزمة المناخ وخطر تهديد التنوع البيولوجي بالجشع. والجشع ببساطة لا يشكّل أي مصدر قلق للجشعين. هناك العديد من الأمثلة التاريخية على ذلك، ولعل أقربها هو جشع جيلي. وعلى امتداد التاريخ، كانت هناك عروض مختلفة من العظمة الكبرى التي تأسست على استعراض القوة اللاأخلاقية، مثل العبودية. ثم استبدل الاقتصاد المُتأتي من الاستعباد إلى حدّ كبير بنوع

جديد من أنواع العبودية، وبهذا أعني الاقتصاد النفطي. الفرق هنا هو أن عبيد اقتصاد النفط لم يولدوا بعد. أعني بذلك أولئك الذين سيكافحون لدفع تكاليف الحفلة التي أقمناها. لا ريب في أن النفط والفحم انتشلا أناسًا كثيرين من براثن الفقر. في الوقت نفسه دفعت هذه الموارد الكثير من الأشخاص تقريبًا إلى ولوج نظام من التبذير والإفراط في الاستهلاك.

برميل واحد من النفط، أي 159 لترًا، يعادل حوالي عشرة آلاف ساعة عمل، أو ست سنوات من العمل اليدوي. ومع ذلك، تُباع هذه الكميات شبه المستعصية على الفهم من الطاقة بسعر تصفيفة شعر.

لا أحد يمتلك النفط. نحن فقط نضخه! ولن يلبث أن يختفي كلّه. هذا إلى جانب أنه لا يمكننا الاستمرار في حرقه. فأحفادنا سيرثون العواقب من الكربون الأحفوري الذي سبق أن أحرقناه، وقذفنا سمومه في الغلاف الجوي.

وفقًا لمبدأ المعاملة بالمثل، كان يجب أن نسمح لأنفسنا باستخدام الموارد غير المتجدّدة فحسب، إذا جعلنا أيضًا من الممكن للأجيال القادمة أن تتدبّر أمورها من دون تلك الموارد نفسها.

الأسئلة الأخلاقية ليست صعبة الإجابة بالضرورة. ما

ينقصنا غالبًا هو قدرتنا على قبول عواقب هذه الإجابات. وفي حال نسينا أن نفكّر في أحفادنا، فإن أحفادنا لن ينسونا أبدًا.

تتميز الطبيعة البشرية بشعور أفقي وقصير المدى بشكل عام. لطالما كنّا نترصّد خطرًا محتملًا أو فخًا محتملًا. نحن نمتلك قدرة طبيعية لحماية أنفسنا وما يخصّنا. لكن ليس لدينا مثل هذه الغريزة لحماية أحفادنا البعيدين، ناهيك عن حماية الأنواع الحيّة الأخرى.

في حين أن تفضيل جيناتنا متجذّر بعمق في طبيعتنا باعتبارنا كائنات حيّة، فإننا لا نمتلك هذه القدرة الطبيعية لحماية الجينات نفسها لأربعة أو ثمانية أجيال. بيد أننا يجب أن نتعلم فعل ذلك. نعم، يجب أن نتعلم القيام بذلك، تمامًا كما كان علينا أن نعيَ كل حق من حقوق الإنسان الخاصة بنا. أو بعبارة أخرى: تمامًا كما تعيّن علينا استيعاب هذه المعايير وجعلها صادرة من القلب.

منذ أن نشأنا في أفريقيا، ما فتئنا نخوض معركة مستمرة لإنقاذ فرعنا من التعرّض للقطع بوساطة شجرة التطور. وقد كانت معركة ناجحة، لأننا ما زلنا هنا. غير أن البشرية باعتبارها جنسًا ازدهرت كثيرًا جدًا لدرجة أننا بتنا نهدّد سبل عيشنا.

مزدهرة جدًا في الواقع لدرجة أننا نهدّد سبل عيش الأجناس الحيّة كلّها.

بالنسبة إلى الإنسان اللعوب والمبتكر والعبثي، من السهل أن ينسى أننا في نهاية اليوم طبيعة أيضًا. لكن هل نحن لعوبون للغاية ومبدعون وعبثيون إلى حدّ أن يكون للمتعة والألعاب أسبقية على مسؤوليتنا عن مستقبل الكوكب؟

نحن ببساطة لم يعد بوسع بعضنا التواصل مع بعض. ونحن أيضًا ننتمي إلى الكوكب الذي نعيش فيه. إنه كذلك جزء أساسي من هويتنا.

هذا ما اختبرته خلال ضباب الصّباح في ذلك الوقت البعيد، البعيد جدًا، عندما نمت في الخارج تحت الهواء الطلق.

لو أنني أنا فقط، أي مجرد جسد جالس أمام شاشة الكمبيوتر يكتب، لكنت مخلوقًا بلا أمل. لكن إلى جانب جسدي لدي هوية أعمق منه وأعمق من لحظتي القصيرة هنا في الأرض.

*

لقد تشكّلنا إلى حدّ كبير بمفاهيمنا الثقافية والتاريخية المُسبقة التصور، بالحضارة نفسها التي رعتنا. ونقول إننا أمناء على

تراثنا الثقافي. لكن في الوقت نفسه نحن أيضًا تشكّلنا بالتاريخ البيولوجي لهذا الكوكب. أي نحن كذلك أمناء على تراثنا الجيني. نحن ثدييات عُليا. نحن فقاريات.

لقد استغرق إنشاؤنا مليارات السنين. في الواقع، يستغرق إنشاء إنسان مليارات السنين! فهل يا ترى سنبقى أحياءً إلى الألفية الثالثة؟

ما هو الزمن؟ أولاً، هناك أفق الفرد، ثم أفق الأسرة والثقافة، والثقافة المكتوبة، ثم بعد ذلك هناك ما نسميه الزمن الجيولوجي. نحن من نسل ذوات الأربع التي زحفت من البحر منذ حوالي 350 مليون سنة. نحن جوهريًا نتحدث عن جدول زمني كوني. إننا نعيش في كون عمره 13.8 مليار سنة.

أما في الواقع، فلا توجد مساحة كبيرة بين الفترات الزمنية المذكورة كما قد يبدو للوهلة الأولى. لدينا سبب للشعور بأننا في بيتنا في الكون. كما سبق أن ذكرت، العالم الذي نعيش فيه هو إلى حد كبير يمثّل ثلث عمر الكون، وفئة الحيوانات التي ننتمي إليها، الفقاريات، كانت موجودة بنسبة 10٪ تمامًا من عمر الأرض ونظامنا الشمسي. كوننا ليس متناهيًا أكثر من ذلك. والعكس صحيح: جذورنا وعلاقتنا بتربة الكون عميقة بشكل كبير.

لعلّ البشر هم الكائنات الحية الوحيدة في الكون بأسره التي لديها وعي شمولي، أي إحساس مذهل بهذا الكون الهائل والغامض الذي نحن جزء أساسي منه. وهذا يعني بالتالي أنه ليس لدينا فقط مسؤولية عالمية للحفاظ على أساس الحياة في الأرض. بل لدينا إلى جانب ذلك مسؤولية كونية.

الأحافير البصرية

لأننا لسنا وحدنا هنا. جميع الكائنات الحيّة على هذا الكوكب لها تاريخ طويل مثلنا، سواء هي كائنات حيّة مجهرية أو نباتات أو فطريات أو حيوانات. قد يبدو هذا أمرًا لا يتصوّره العقل، لكن الإنسان مرتبط في الواقع بكل أشكال الحياة الأخرى على الأرض. وسبق أن واجهتُ شيئًا مشابهًا في سنّ مبكرة، عندما هربتُ من كلّ شيء وذهبت إلى الغابة.

في عام 2019، قدّم المنبر الحكومي الدولي للعلوم والسياسات في مجال التّنوع البيولوجي وخدمات النّظم البيئية تقريرَه العالمي الأول عن حالة الكوكب، وكانت المعلومات التي قدمها لسكان العالم غير مشجعة: فنُظم الكوكب البيئية تتدهور بسرعة، ومليون نوع من النباتات والحيوانات معرض لخطر الانقراض. والوضع حرج للغاية بالنسبة إلى نصف مليون من هذه الأنواع، ومن غير المحتمل أن تبقى حيّة على المدى الطويل. بيئاتها الطبيعية غدت محدودة جدًا، لدرجة أن أكثر الأنواع المهدّدة بالانقراض أصبح يُشار إليها باسم «الموتى الأحياء». مناطق

معيشتها في منتهى الصّغر بحيث لا يمكنها البقاء على قيد الحياة لأكثر من بضع سنوات أخرى. في الحقيقة ما يقرب من 10 في المئة من أنواع النباتات والحيوانات في العالم قد انقرضت، على الرغم من وجود عدد قليل من العيّنات الفردية المتبقية.

يُعرض ما يسمى بالقوائم الحمراء للأنواع النباتية والحيوانية المهدّدة بالانقراض في منشورات فائقة الجمال مع صور ملونة مُستنسخة بوضوح لأنواع إما «مهدّدة بالانقراض» أو «معرّضة بشدّة للانقراض» أو «معرّضة للخطر». وفي الوقت نفسه – كسخرية من القدر – لدينا كتب رائعة معروضة للتصفح وليس للقراءة، مزوّدة بصور ملونة مبهرة لجميع الأنواع التي انقرضت بالفعل. وهذه الكتب ستتكون بشكل متزايد من الصور نفسها – التي التقطها المصورون أنفسهم، وبحقوق النشر نفسها – وقد زُينت قبل سنوات قليلة فقط بقوائم الأنواع المهددة بالانقراض، أي تلك الأنواع التي لم تكن منذ فترة طويلة تحتلّ مرتبة عالية في القوائم الحمراء.

لدي الآن أحد هذه الكتب الفخمة على المكتب أمامي، ولا ريب في أنه من بين الكتب الأولى من نوعها، ولعلّ بعضكم تصفحه عندما قام بزيارتنا في بيورنفيان.

اسم الكتاب «فجوة في الطبيعة»، بعنوان فرعي «اكتشاف الحيوانات المنقرضة في العالم»، كتبه عالم الحفريات الأسترالي وعالم الطبيعة تيم فلانيري. يُظهر الغلاف رسمًا إيضاحيًا لطائر الدودو من موريشيوس، والذي شوهد آخر مرّة في عام 1681، وعلى ظهر الكتاب رسم توضيحي لآخر أنواع طائر موا، الذي أباده الماوريون النيوزيلنديون حوالي عام 1600.

لذلك ليس الرجل الأبيض وحده من ساهم في تدمير التّنوع البيولوجي للكوكب. الجديد في الأمر هو كيف تسارع معدّل الانقراض إلى مستوى أعلى بكثير من ذي قبل، وبالمقابل حافظنا على طبيعتنا البشرية من حيث التفكير في كل ما هو مفيد لنا على المدى القصير.

لا يمكننا أن نسمح للكتب المعروضة للتصفح أن تغدو في يوم متخمة بالصور الجميلة لحيوانات مفترسة منقرضة مثل الأسود والفهود والنمور. لا أعتقد أن هذا سيحدث، وهذا ليس دافعي للكتابة. أنا فقط أحاول أن أكون ساخرًا، «أعني الافتراض المنافي للواقع»، وبقيامي بهذا أسلّط الضوء على شيء لا يمكن السماح بحدوثه.

هذا مع أنني لا أجد أنه من المستحيل تمامًا تخيّل ظهور مثل هذا العمل الضخم المفعم بالصور البراقة للأنواع النباتية

والحيوانية المنقرضة، المنظّمة بدقّة ضمن ما يُسمى بالترتيب التصنيفي.

يمكن تسمية الفصل الأول «النباتات المنقرضة والفطريات»، وهذا وحده من شأنه أن يقدم لنا الكثير من الصور الممتزجة بالحنين للزهور الجبلية النابضة بالحياة التي فُقدت بسبب تغيّر المناخ، أو أزهار الأوركيد الشرقية، التي اختفت الآن لأن بيئتها الاستوائية اضطرت إلى الاستسلام لشكل من أشكال الزراعة الأحادية.

الفصل الثاني: «اللافقاريات». حيث يقوم الباحثون أيضًا بفهرسة وتأمين صور تفصيلية لكائنات أقلّ أهمية إلى حدّ ما - قبل أن تختفي - كائنات من حشرات التلقيح اعتمدت عليها البشرية باعتبارها من أسباب المعيشة، قبل اضطرارنا إلى اللجوء إلى التلقيح الاصطناعي على نطاق واسع، وهو شكل جديد تمامًا من أشكال الزراعة. لكن العديد من الأنواع - تلك الموجودة في الغابات المطيرة على سبيل المثال - تنزلق من بين أصابعنا قبل أن نحصل على فرصة لوصفها.

الفصل الثالث: «السّمك». هناك العديد من أنواع الأسماك المهدّدة بالانقراض، والتي يمكن أن يختفي الكثير منها تمامًا في نهاية المطاف. الشّعاب المرجانية آخذة في الذّبول، لأسباب ليس

أقلّها التحمّض المميت لمحيطات العالم - الذي كان كارثة سبق أن ورد التحذير منها، والناتجة عن تراكم ثاني أكسيد الكربون في المحيطات والغلاف الجوي - وعندما تختفي هذه «الغابات المطيرة في المحيطات»، سيختفي أيضًا حشد كبير نشيط من مختلف أنواع السّمك. ومع ذلك، لدينا صور عديدة للسّمك الملوّن، خصوصًا تلك المُدرّجة في مجلات السّفر القديمة، أي يمكننا في أدنى الأحوال نقلها إلى أحفادنا. في فيلم البطة البرية للمؤلف «هينريك ابسن»، ينسى الأب أن يحضر من حفل العشاء الفخم شيئًا لذيذًا لابنته هيدفيج كي تتناوله. غير أنه يحضر معه قائمة الطعام التي يعطيها لهيدفيج حتى تتمكّن على الأقلّ من الاطّلاع على ما فاتها. بل حتى يقترح أن يصف لها ما طعم الأنواع التي تذوقها من الأطباق المختلفة. (أليس من السخرية كيف تمكن فنّ التصوير الفوتوغرافي - والتخزين الرقمي للمعلومات - من الانتشار بسرعة بينما بدأنا بشكل خطر في القضاء على التّنوع البيولوجي للأرض؟)

الفصل الرابع: «البرمائيات». نحن مُطّلعون مسبقًا على الصّور الملونة للضفادع والسمندلات ذات المظهر الغريب. وفقًا لتقرير الاتفاقية الدولية لوقاية النباتات، فإن 40 في المئة من جميع البرمائيات في العالم مُعرّضة للخطر، والعديد منها يحتلّ

مكانًا بارزًا في القائمة الحمراء للأنواع المهدّدة بالانقراض الصادرة عن الاتحاد الدولي لحفظ الطبيعة. أرى أنني الآن وصلت إلى معرض أدب الكائنات الحيوانية. هل كتبتُ أدبًا عن الكائنات الحيوانية؟ لا بأس، قد تكون هناك في السنوات القادمة حدود مرنة بين الأدب الحيواني والفانتازيا. وسنقول: أهذا صحيح؟ أحقًا عاشت هذه الحيوانات الغريبة على الأرض، في كوكبنا؟

الفصل الخامس: الزّواحف. اسمحوا لي أن أتوقّع أن هذا الفصل قد يكون أيضًا ناجحًا للغاية. أتخيّل الساعةَ بعض الفروق الجميلة التي تُظهر ما نشير إليه حاليًا بالسّلاحف النّادرة والثعابين والسّحالي، وبعضها يبدو قديمًا بشكل لا يمكن إنكاره، بل إن العديد منها أيضًا كائنات بدائية، أو ما نسميه «الأحافير الحيّة». إنها ما قد نشير إليه في المستقبل باسم «أحافير صورية» أو «الأحافير البصرية»، كما هي الحال في الأنواع التي شوهدت بالعين قبل انقراضها. (أودّ الإشارة بين قوسين إلى أن التقاليد الإسلامية بيّنت بوضوح أن أي شخص يخلق صورة لكائن حي سوف يعاقبه الله حتى يتمكن الخاطئ من بثّ الحياة في هذه الصورة. وربما يصدر حكم مشابه في يوم من الأيام على جميع البشر، أو على حدّ تعبير الشاعر النرويجي «هنريك ويرجلاند»: الفراشة ذات الكساء البديع / طارت من بين يدي الله. /

منحها جناحين ذهبيين / وشرائط حمراء وأرجوانية (...) ولا أي شخص في العالم / أو أي مرسوم ملكي / يستطيع أن يصنع فراشة / لا أحد سوى الله سبحانه وتعالى.)

لقد وصلنا إلى الفصل السادس: «الطّيور». قد يكون هذا فصلًا غنيًا بالألوان، والكثير من هذه العيّنات الجميلة تملأ منذ الآن صفحات «اكتشاف الحيوانات المنقرضة في العالم». قبل بضع سنوات - أو لنقل قبل مئة عام من وصول تحفتنا الفنية المقصودة (في أسوأ الأحوال!) إلى المكتبات - هناك مقال موثّق جيدًا في التقرير السنوي الدولي لمعهد مراقبة العالم. كان عنوانه: «والطيور تختفي»، وهو عنوان يمكن أن يشير أيضًا إلى الوضع هنا في النرويج، في المناطق السّاحلية على وجه الخصوص. وفقًا للقائمة الحمراء النرويجية، هناك العديد من أنواع الطيور «المعرّضة للخطر»، والمزيد منها «معرّضة لخطر محدق»، وأنواع أخرى كثيرة منها إما «غير محصّنة» أو «على شفير الانقراض».

لم يتبق سوى فصل واحد من رائعتنا الفنية، وبالنسبة إلى الكثيرين ستكون هذه النقطة البارزة. أنا هنا أفكر في الفصل السّابع: «الثدييات». هناك الكثير لاستعراضه في هذا الفصل، لذا أعتقد أننا يجب أن نزوّد أنفسنا بحيّزين ضخمين من

صفحتين مزدوجتين. أتخيّل، على سبيل المثال، بعضًا من أروع لقطات «ناشيونال جيوغرافيك» للقردة الحزينة والشمبانزي والغوريلا وإنسان الغاب - بالمناسبة، لا داعي للتساؤل عن سبب شعورها بالحزن الشديد. يمكنني بسهولة أن أتخيّل الحماسة الطفولية التي يمكن أن يظهرها أحفادنا الصّغار بهذه الصّور، بهذا الكنز البصري الدّفين، لأنه بفضل العرض الرقمي للصّور، تظهر التفاصيل دقيقة كما كانت في زمن الأجداد الأوائل، نعم الصّور فقط، فأنا لا أتحدّث عن أي شيء آخر، لأن الحيوانات نفسها قد اختفت منذ فترة طويلة، بعد عقود قليلة فقط من التقاط هذه الصور الرائعة في الواقع. اختفت. والقصة الخيالية انتهت!! (نعم! في يوم من الأيام، كانت ثروة تعدُّد الأنواع في كوكبنا أشبه بشيء من القصص الخيالية، وتكاد تكون جميلة بشكل يفطر القلب). والفرق بين ذكرياتنا عن الدّيناصورات وتلك التي لدينا عن الثّدييات الكبيرة التي أبادها البشر هو أنه لدينا الكثير من الصّور الممتازة للثّدييات. (لقد صنعناها!) كانت الكتب الواقعية عن الدّيناصورات والسّحالي الطائرة وما إلى ذلك حسنة وجيدة كلّها، على الرغم من أنها غالبًا ما شابتها جميع أنواع الرسوم التوضيحية والرسومات البسيطة، أعني المحاولات الجسورة لتصوير شيء كان موجودًا

حقًا. لكن في يوم من الأيام سيحلّ محلّ الفضول الذي يشعر به الأطفال الآن تجاه الديناصورات، الاهتمام الصبياني بالثّدييات المنقرضة. وبالنسبة إلى الأصغر سنًا سيتحول ذلك إلى ألعاب اليانصيب المصورة.

المشكال المروّع (أو منظار النماذج المتغيرة) الذي عرضتُه هنا، لا أقصد به نظرتي المتشائمة تجاه الكوكب أو تنوّع الأجناس التي تعيش فيه. لا يمكننا أن نسمح لأنفسنا بمثل هذه الرفاهية - أي التشاؤم - يجب أن نكون في مواقع المعركة. التشاؤم هو مجرّد مرادف آخر للكسل، لتفادي المسؤولية. لأن المعركة لم تنته بعد، لم نخسرها بعد. غير أن البشرية ما زالت تُلحق ضررًا كبيرًا بالنّظم البيئية في العالم. نحن من يفعل ذلك، ونحن نفعله الآن.

أحبابي ليو، وأورورا، ونوح، وألبا، وجوليا وماني. تخيّلوا كم هي فكرة جميلة أنه في نهاية القرن الحادي والعشرين قد يعيد أحدكم قراءة هذه الكلمات، وإذا كان الحظّ إلى جانبه قد يرفع ذراعيه في الهواء ويصيح: انظروا!! لم تصل الأمور إلى السّوء الذي ألمح إليه الجدّ. الطبيعة في العالم هي تقريبًا سليمة كالسابق. ما زالت قطعان الفيلة تهاجر بأعداد كبيرة عبر السّافانا الأفريقية، ولم نفقد أيًا من الحيوانات المفترسة الكبيرة ... (كان

الجدّ حقًا متشائمًا بشكل غير قابل للإصلاح!)

صحيح، إنها فكرة جميلة. لكنها لن تصبح حقيقة من تلقاء نفسها.

إذا كانت الحياة على الأرض مهدّدة، فهذا لا يمثل أي شيء جديد بشكل خاصّ في تاريخ البشرية. فالعديد من الأديان القديمة اعتبر النّظام الكوني هشًا ومؤقتًا. مرّة كانت هناك فوضى، ومن هذه الفوضى ظهر العالم المنظّم أو الكون. من ناحية أخرى يمكن في أي لحظة أن يتقهقر مرة أخرى إلى حالة من الفوضى.

خلال عصر «الفايكنغ»، كان هناك توازن دقيق للقوى بين الطاقة الجيّدة المُعزِّزة للحياة من جهة والسلطة المدمِّرة الشريرة من جهة أخرى. عند جانب الحياة والخصوبة كانت الآلهة الطيبة، الآيسرات والفانير، وأما قوى الفوضى الشريرة فجسّدها اليوتن البغيضون.

في العالم الخيالي الإسكندنافي، كان من الضروري توخي الحذر باستمرار من اليوتن أو العفاريت أو الوحوش القديمة الأخرى التي لطالما حاولت توجيه العالم نحو الفوضى. وكان الأمر متروكًا للبشر والآلهة الصالحة لإبقاء تلك العفاريت تحت السيطرة.

في بلدان الشّمال القديمة لم يأت الربيع ولا الخريف تلقائيًا.

فالقوى المعزِّزة للحياة اعتمدت على المساعدة البشرية، وقد تُرك الأمر للبشر لمنح القوة والسّلطة للآلهة الصالحة، وذلك بتقديم قرابين الدّم لها، وهي طقوس وثنية هدفها نقل السّلطة للآلهة.

لم يُقصد بقرابين الدّم الاقتصار على زيادة الخصوبة، فهذا الأمر مرتبط بالفانير بشكل أساسي، ومن أبرزهم فرير وفريا. ولكن كان من المهم بالقدر نفسه منح القوة للآيسرات مثل ثور وأودين، كي يكون بوسع هذه الآلهة صدّ التّهديدات الخبيثة لقوى الشر، والمدمّرين، لا سيما العديد من اليوتن الذين أرادوا باستمرار إنهاء السّلام والنّظام العالمي. وقد كان ثريم من بين أسوأ وحوش الفوضى هذه.

تروي قصيدة «ثريمسكفيدها» من مجموعة الأشعار الإسكندنافية القديمة، كيف سرق ثريم مطرقة ثور، الـ «ميولنر». كان ذلك وضعًا منذرًا بالشؤم، لأن من يملك السّلطة على مطرقة ثور يصبح مصير العالم بين يديه. يستغل ثريم هذه الحالة بمطالبته إلهة الخصوبة، فريا، أن تصبح عروسه مقابل المطرقة. فتغضب فريا غضبًا شديدًا من العرض الخسيس بحيث تهتز مملكة الآلهة «آسغارد» بأكملها، إلى جانب أن هذا سيبدو رهيبًا لعوالم الآلهة، وعوالم البشر (آسغارد وميدغارد) لو أن أسس الحياة ذاتها انتهى بها الأمر إلى أن تحكمها قوى الفوضى

الخبيثة. في أسوأ الأحوال، قد يؤدي ذلك إلى نهاية العالم، أو الكارثة «راجناروك». (غير أن روكي - جيمس بوند مملكة الآلهة - سرعان ما يهبّ للنجدة، وفي النهاية تصل الدّراما إلى خاتمة سعيدة.)

ما لدينا هنا ليس مجرّد نمط بدائي عن الإرهاب والابتزاز، فهو أيضًا أحد أشكال الغشّ أو السلوك المشاكس الذي للأسف لم يخرج عن النمط السائد بعد. إذ ليس من الصّعب أن نشير إلى بعض المهرجين المعاصرين الذين يذكروننا تمامًا بـ ثريم.

كان تصوير النّظام العالمي غير المستقر في العصور الإسكندنافية القديمة يتمثّل في «ياغدراسل» - شجرة دردار كونية وهائلة الضخامة دعمت العالم بأسره، ترتبط بها صحة العالم وقوته ارتباطًا وثيقًا. وفي حال انهيار الشجرة، سينهار العالم أيضًا.

هدّدت قوى الفوضى شجرة «ياغدراسل» أيضًا. كان في أسفل الشجرة تنين مروع «نيدوغ» يقضم جذورها، معرّضًا إياها لخطر السّقوط باستمرار. في الوقت نفسه كان هناك نسر عند قمّة تلك الشجرة. وما بين النسر والتنين ثمة سنجاب متهوّر «راتاتوسكر» وهو دائم الانطلاق بلا هوادة صعودًا وهبوطًا على جذع شجرة الحياة ناقلًا معه رسائل عدائية بين

النّسر والتّنين.

يجسِّد السنجاب عدم استقرار النّظام العالمي. متى سيقوم الراتاتوسكر أخيرًا بدفع كل من التّنين والنّسر نحو صراع شامل؟ متى يحوِّل العدوان شجرة العالم إلى ساحة معركة؟

ليس من الصعب تخيّل السنجاب المؤذي اليوم، وهو يتنقل بين الكرملين والبيت الأبيض، أو حتى يسلك المسافة القصيرة بين البيت الأبيض ومبنى الكابيتول.

نظرًا إلى عدم وجود ما يكفي من الآلهة الصالحة لنعتمد عليها، يجب علينا الآن أن نوحّد قوانا لنهزم جماعة الراتاتوسكر كلّها في عصرنا، أي المتنمرين والمهرجين في السّاحة الدولية. لأن التّهديد الموجّه للحياة على الأرض لم يعد متعلقًا بالأساطير. نحن الآلهة الصالحة ونحن العفاريت.

لقد أشرتُ إلى الوباء، الذي ما فتئ يرهقنا لأكثر من عام، ومن اللافت للنّظر أن أولئك الذين «لا يؤمنون» بمخاطر الأوبئة (أو بجدوى مكافحة العدوى) هم غالبًا الأشخاص أنفسهم الذين «لا يؤمنون» أن تغير المناخ من صنع الإنسان، الذين «لا يؤمنون» بالتّطور، الذين «لا يؤمنون» بالقيمة التي لا يمكن تعويضها للغابات المطيرة، والذين علاوة على ذلك، «لا يؤمنون»

بنتائج الانتخابات الديمقراطية عندما لا تكون في مصلحتهم.

من السّهل تمييزهم باعتبار أنهم العفاريت أو قوى الفوضى في عصرنا.

تنتشر هذه العفاريت بشكل خاص عبر الإنترنت، ويطلق عليهم لقب «عفاريت الشبكة العنكبوتية»، الذين يعملون ليل نهار لإحداث الاضطرابات والانقسام بين مختلف الأشخاص، وفي قلب المجتمع العالمي؛ هي مجموعة من عفاريت قزمية مُحبَطة وغاضبة، تسعى إلى التشويش ونشر المعلومات المضلِّلة، ولا تختلف كثيرًا عن الراتاتوسكر الصّغير المخادع. غالبًا ما يتصرّف أعضاء هذا التكتل بهوّيات مجهولة وبشكل فردي، بيد أنهم في الوقت نفسه يتصرّفون بطريقة مُنظمة تابعة لمصانع العفاريت الخاصة بهم.

لطالما اعتقدت في طفولتي أن جميع البشر لطفاء على حدّ سواء. أما الآن فما عدت أؤمن بذلك. بل أرى أن الفروق التي بيّنتها الأساطير، بين قوى الخير والشر، تنطبق على البشر أيضًا. إذ من أين استمدت الأساطير هذه الثنائية؟

يريد بعض الناس، أكثر من أي شيء آخر، المساعدة في تعزيز العالم وإخوانهم من بني البشر. لقد كان من دواعي سروري أن

ألتقي بأفراد منهم. من ناحية أخرى ثمة أناس عازمون على تمزيق العالم، خصوصًا ربما عندما يمكن القيام بذلك بشكل مجهول أو سرًا. لقد قابلت بعض هؤلاء الأشخاص أيضًا. وفي مناسبتين اكتويت بنارهم كذلك.

لعلّ معظمنا يقف في مكان ما بين هذين النقيضين. أعتقد أن الحياة علّمتني أنه يمكن أن يكون هناك عفريت صغير يكمن في كلّ واحد منّا.

ربما أهمّ ما يمكن أن يقوم به الوالدان لأطفالهم هو إظهار اللطف والحبّ لهم. ثاني أهم شيء هو تربيتهم ليكونوا طيبين ومحبّين للآخرين، محبّين للضعفاء والحيوانات والطبيعة والأجيال القادمة. قد يبدو هذا تافهًا، وهو في الواقع تافه، لكن غالبًا لا يكون من الصّعب التعبير بالكلمات عما هو الأكثر أهمية في الحياة.

نتعلّم القراءة والكتابة. ونتعلّم في النهاية أن نكون «طيبين ولطيفين»، أو ما نطلق عليه بطريقة رصينة نوعًا ما: غَيريين، مع العلم أن اللطف والخير لا يأتيان بشكل طبيعي.

ما رأيكم أيها الناشئة؟

يجب على كل واحد منّا الوقوف أحيانًا أمام المرآة، مرّة

واحدة في الأسبوع على سبيل المثال، وينظر في عينيه ثم يسأل انعكاسه: أأنا شخص طيب؟ هل أريد الأفضل لرفاقي من البشر؟ أو لأجيال المستقبل؟ هل أساهم في حماية تنوّع الحياة في كوكبنا؟

وستجيب المرآة. طالما أننا لا نشيح نظرنا بعيدًا عنها، ستستجيب العيون في المرآة وتحدّق بدورها فينا.

لا أعتقد أن الجميع سيمتلكون الجرأة لإجراء اختبار المرآة هذا، حتى أنا أحيانًا خشيت من القيام بذلك. بعض الأشخاص سيرفضون هذه التجربة باعتبارها صبيانية. وأرى أن هذا ليس إلّا تصرّفًا جبانًا للغاية.

كنت أفكّر في أن الأصول نفسها لبضع كلمات استعرتها من الأساطير الإسكندنافية القديمة، قد تقول شيئًا ما حول ماهية القتال بين الخير والشر.

اسمحوا لي أولاً أن أشير إلى «اليوتن». هذه الكلمة تعني بشكل فضفاض آكلي لحوم البشر، غير أنها مرتبطة أيضًا بكلمات مثل الشّراهة والذبائح، ولا ننسى كلمة البدانة. ولعلّ وحوش الفوضى اليوم متعاطفون مع الشّراهة والإفراط في الأكل، ولا أستثني نفسي. من المؤشرات الرئيسة على الاختلال الهائل السّائد في العالم الحديث هو التفاوت بين

الأغنياء والأكثر فقرًا، بين الجياع والمُتخمين.

تاريخيًا ترتبط كلمة فانير، التي تلقّب بها آلهة المحافظة على خصوبة الطبيعة والبشر، بالكلمات الإسكندنافية «فين» التي تعني «صديق»، و«فينّ، وفينتي أو فون» التي تعني «الأمل»، هذا جنبًا إلى جنب مع اسم إلهة الحب الرومانية «فينوس». بعبارة أخرى، كانت هذه الآلهة تمثل «الإيمان والأمل والمحبة». إذا أردنا أن ننجح في حماية نُظم الأرض البيئية والتّنوع البيولوجي، فسنحتاج إلى كلّ جزء من هذا البرسيم ذي الأوراق الثلاثة.

مع ذلك، هناك آراء وصُنّاع قرار، في ساحات عالم اليوم، ولا يبدو أنهم يسترشدون بأي من هذه الأشياء، لا بالإيمان أو الأمل أو الحبّ.

بينما نحن ما زلنا في هذه الزاوية الأسطورية، لعلّه من المناسب أن أذكر شيئًا أشعر أنه مهم جدًا بالنسبة لي.

من وقت لآخر، التقيت بأشخاص تقبّلوا تمامًا أن الجنس البشري يشكّل تهديدًا لموائل العالم، لكنهم استنتجوا أن أفضل شيء لكوكب الأرض في هذه الحالة هو فناء البشرية.

الفكرة هي أن أمّنا الأرض - أو «غايا» - هي كائن حي، قادرة على ضبط غلافها الجوي، وكذلك «درجة حرارة جسمها».

تعاني غايا من الحمّى، والميكروبات التي تجعلها مريضة هي نحن البشر. لكن غايا ستتخلّص منّا قريبًا، وفي هذا السياق يمكن رؤية أزمة المناخ.

يمكن أيضًا وضع أوبئة مثل الإيدز أو الإيبولا أو كوفيد 19 في سياق مماثل. لقد غزا البشر النّظم البيئية وأجبروا الحيوانات البرية مثل الخفافيش على الانتقال إلى مناطق لا تفتأ تكتظّ بالناس، ما أدّى إلى انتشار أوبئة فيروسات انتقلت من نوع حيواني إلى آخر. إن تفشي الأوبئة هي طريقة آلهة الأرض للدفاع عن نفسها – أو هو انتقام «غايا».

لقد قابلت أشخاصًا كانوا متحمّسين للغاية لاحتمال القضاء على الإنسانية – من أجل «غايا». لأنه بمجرّد رحيلنا، ستتعافى الطبيعة بسرعة.

ربما هذا صحيح. ربما ستعود الطبيعة إلى رونقها بعد رحيلنا. لكنني أنتمي إلى النزعة الإنسانية لدرجة لا تسمح لي بقبول هذا النوع من التفكير، وقد أميل إلى اعتباره نوعًا من «الفاشية البيئية».

البشر ليسوا مجرد آفات. نحن، من منظور عالمي، وربما على نطاق كوني أيضًا، مخلوقات استثنائية حقًا. لن يكون هذا الكوكب هو نفسه من دوننا، من دون وجودنا ووعينا وذاكرتنا

الكوكبية والكونية. ولا حتى لو تسبّب غيابنا في شفاء البحار والغابات.

علينا التعامل مع هذين الأمرين - إنقاذ البحار والغابات، وعلينا أن نكون جزءًا من الرحلة المقبِلة.

مقوّم العظام ورائد الفضاء

منذ عدّة سنوات، وخلال الشّهر نفسه، قابلتُ مقوّم عظام متشككًا ورائد فضاء ساذجًا.

قابلت مقوّم العظام أولًا. إذ عانيت من بعض المشاكل في ركبتي، وسبق أن صوّرتها بالأشعة السينية. ثم بمجرد أن ألقى الطبيب نظرة على الصورة، وقبل أن يعلّق على النتيجة، رفع رأسه وسألني عن رأيي في أبولو.

أبولو؟ عجزت عن فهم ما يرمي إليه بالضبط. فقد كانت هناك وكالة سفر محلية تدعى أبولو، وراح عقلي بطبيعة الحال إلى التفكير في الإله اليوناني. ولكن بعد بضع ثوان، تبادر إلى ذهني ما يمكن أن يكون الطبيب قد عناه.

أتراه يقصد برنامج الفضاء كما في رحلة ناسا إلى القمر؟

هزّ مقوّم العظام رأسه موافقًا، وسرعان ما أخذنا نتبادل الآراء لفترة طويلة من الوقت، ليس بخصوص ركبتي، بل عن اعتقادنا بأننا وصلنا إلى القمر حقًا. بقوله «اعتقادنا» عنى نحن البشر.

حاولت أن أشرح له سبب اقتناعي الأكيد بذلك، غير

أنني اكتشفت أنها غدت كلمتي مقابل كلمته، لأنه بدا مقتنعًا بالقدر نفسه أن العكس هو الصحيح. مع أن إحدى الحجج التي استخدمتها هي أنه لو لم «تُصدِّق» وكالة الفضاء الروسية أن الأمريكيين قد فازوا حقًا بالسباق ليكونوا أول من يهبط على سطح القمر، لما سمحَت لذلك الادعاء بالمرور من دون اعتراض.

لكنني أردت التّحدث عن ركبتي التي تؤلمني ...

اعتقدتُ أن الأطباء لديهم درجات علمية. فهناك كنا نستخدم التكنولوجيا الحديثة لفحصي. ومن المؤكد أن خلفية الرجل المهنية حصّنته من الوقوع في فخّ نظريات المؤامرة الرخيصة، مثل نظرية أن «الهبوط على القمر» التاريخي في تموز 1969 جرى في قاعدة عسكرية سرّية في صحراء نيفادا؟ طبعًا من الواضح أن هذا غير صحيح.

بعد بضعة أسابيع فقط، قابلت رجلاً كان حقّا على سطح القمر، وتحديداً على متن مركبة الهبوط على القمر التّابعة لأبولو 14. وهو رائد الفضاء إدغار ميتشل، الذي هبط على سطح القمر في 5 شباط 1971، وبذلك أصبح السادس ضمن سلسلة من الناس الذين ساروا على سطحه.

استمعتُ إلى محاضرة ملهِمة ألقاها في قاعة كبيرة في جامعة

أوسلو. في وقت لاحق من المساء، حالفني الحظّ أيضًا للتّحدث معه على انفراد.

بينما عرض ميتشل صورًا للمشي على سطح القمر، خطر لي أن مقوّم العظام كان يجب أن يكون هناك.

بعد المحاضرة، أتيح للحاضرين طرح الأسئلة، وسرى بي شعور بالخدر نوعًا ما عندما تعلّق أول هذه الأسئلة بما إذا كان رائد الفضاء يعتقد أن بعض الكائنات الفضائية من أنظمة شمسية أخرى قد زارت الأرض. حيث تكررت كلمة «يعتقد» هنا من جديد. بدا لي أنه من المحرج أن أشهد ذلك. إذ جرت هنا مناسبة فريدة من نوعها، جاء رائد فضاء أمريكي إلى أوسلو وعرض صوره الخاصة عن القمر، وعليه أن يواجه هذه الأسئلة المبهمة إلى حدّ ما، عن الأجسام الطائرة المجهولة وزيارات «الكائنات الفضائية». ومن ضمن الحضور في القاعة «إيريك تاندبرج» ؛ الخبير النرويجي الأسطوري في الفضاء، وليس أقلّها الرحلات إلى القمر. كنت جالسًا في مكان قريب منه، وبدا واضحًا أنه هو أيضًا شعر بالارتباك.

غير أن رائد الفضاء أجاب بنعم من دون تردّد. كان ميتشل مقتنعًا بأن الكائنات الفضائية زارت الأرض باستمرار، وأن هناك دليلًا واضحًا على ذلك، لكن السّلطات في جميع أنحاء

العالم فعلت ما بوسعها للتستر عليه (وهو أمر نفته ناسا بشدّة). ثم اتضح لي أن رائد الفضاء المحبّ للخوارق لديه مجموعته الصغيرة من المتحمسين للأجسام الطائرة في النرويج، الأمر الذي فسّر سبب ظهور هذه الأسئلة.

قرب نهاية حياته، قلّل ميتشل من شأن هذه المقولة. وفي مقابلة عام 2014 قال إن مزاعمه حول كيفية محاولة الدول التستر على زيارات الكائنات الفضائية ليست سوى تكهّنات من جانبه. ثم، في عام 2015، ادّعى في مقابلة جديدة أن كائنات خارج الأرض بذلت جهودًا لمنعنا من شن الحروب في ما بيننا، وساعدت في الحفاظ على السّلام على الأرض.

توفي إدغار ميتشل في فبراير 2016.

ما زلت مقتنعًا بأن رائد الفضاء البشوش قد تحدث بشكل قاطع وساذج عن الأجسام الغريبة والكائنات الفضائية. كان الرجل من رواد الفضاء المحترمين، بيد أنني أرى أنه جانَب الصّواب في هذه النقطة.

المسافات بين الكواكب الصالحة للسكن هائلة. بل حتى سرعة الضوء تتدحرج مثل المكافئ المَجَرّي لقطار بضائع بين هذه الوجهات.

مع ذلك يمكنني أن أتخيّل أن إيمان ميتشل بوجود نوع معين

من حركة المرور في الفضاء ربما نشأ من تجربة مرّ بها في طريقه إلى الأرض من القمر - كان طبعًا في حالة انتقال! كما وصف رحلته قرب نهاية محاضرة أوسلو.

في طريق عودته إلى الأرض، توافر لديه متسع من الوقت الحُرّ، بعد أن أنجز عمله على سطح القمر، وصار يمكنه أن يجلس من دون إزعاج ويستمتع بالمنظر المذهل.

بينما هو يسير على القمر، صُدم بما يُسمى «تأثير النظرة العامة» وهو يتأمّل الأرض، وهذا أمر رواه العديد من رواد الفضاء.

«أنت تطوّر وعيًا عالميًا فوريًا، وتوجّهًا شعبيًا، واستياءً شديدًا من حالة العالم، ودافعًا إجباريًا لفعل شيء حيال ذلك. من هناك على سطح القمر، تبدو السياسة الدولية تافهة للغاية. تريد أن تمسك سياسيًا من نقرته، وتجره ربع مليون ميل وتقول له، انظر إلى ذلك يا ابن العاهرة»

وهكذا، في رحلة عودته عبر الفضاء، غلب عليه شعور شديد بالبهجة، وشعور بأنه ليس وحيدًا في الكون. استخدم كلمات مثل «لقد وجدتها» و«الوحي» و«النشوة». لقد شعر بالاتحاد مع كل شيء، وتملّكه إدراك قوي بأن الكون مفعم بالوجود والوعي.

اِعتقدَ ميتشل أن شيئًا ما يخصّ توجه البشرية قد انحرف

عن مساره منذ حوالي 400 عام. إذ لطالما طغى العلم المادي للعالم الحديث على جانب وجودنا الروحي. ونحن ماديون طبعًا، نتألّف من مادة، كل شيء ما هو إلّا غبار نجمي. لكننا أيضًا وعي، وعلى مستوى أعمق نحن أكثر ارتباطًا مما اعتدنا أن نظن سابقًا. نحن منفصل بعضنا عن بعض، وفي الوقت نفسه نحن متصلون. هذا ما قاله إدغار ميتشل.

بينما انبرى رائد الفضاء يتحدّث، عادت أفكاري إلى الغابة التي قضيت فيها ليلتي، وأنا بعمر ليو الآن. كانت تلك المرة الوحيدة في حياتي التي فصلت فيها نفسي عن العالم لفترة قصيرة ولم أرغب في شيء أكثر من ذلك. في تلك اللحظة وجدت نفسي غارقًا في شيء مشابه تمامًا لما يتحدّث عنه رائد الفضاء الأمريكي الذي يقف في نهاية القاعة الكبيرة.

في لحظة واحدة استهلكتني تلك التجربة كليًا، شعرت كما لو أنني واحد مع كل شيء. لم أكن أزور العالم فحسب. بل كنتُ العالم. وسأظل كذلك حتى عندما تتوقف «أناي» الصغيرة عن الوجود.

تِسعة أدمغة

كنت منذ سنّ مبكرة وأنا في الكوخ في «هينجسن» أفسد نفسي بتدليلها في تأمل السماء المرصّعة بالنجوم المتلألئة. أكتب «أفسِد» لأن سماء الليل الصافية في الوقت الحاضر أصبحت ضربًا من ضروب الرفاهية، لكنها في وقت ما كانت الخيار الوحيد.

بمجرد إطفاء الشموع ومصابيح الكيروسين، لم ننزعج من أي نوع من التّلوث الضوئي. في الليالي الصافية، كان الشيء الوحيد الذي يمكن أن يخفّف من مجال معاينتنا للكون هو ضوء القمر، وفي حالات نادرة أشكال الأضواء الشمالية الراقصة.

الآن ما عاد هذا على تلك الدرجة من الإيجابية طبعًا. فاليوم، يمكن أن يبهِت الضوء المتخلّف من منحدرات التزلّج البعيدة شيئًا من المنظر. إضافة إلى أن المصابيح الكهربائية بدأت هي أيضًا تتسلّل إلى أعلى الجبل.

لكننا ما زلنا نرى النجوم.

هناك شيء ما يخصّ منظوري هذا لسماء الليل التي لطالما أسرتني منذ طفولتي، وقبل فترة طويلة من اطّلاعي على أي

شيء عن علم الفلك، وهو: أمِن الممكن أن توجد كائنات حيّة بعيدة، بعيدة جدًا هناك في الليل المرصّع بالنجوم، تجتلي الكون مثلي؟ وبالنسبة إليها، هل تبدو لها شمسنا كما لو أنها واحدة من بين النجوم الأخرى؟

وأنا صغير، كثيرًا ما فكّرت: لعل هناك بنتًا أو ولدًا ينظر إليَ الآن؟

كان هذا قبل أن أفهم أنه لا يوجد «الآن» في الفضاء. وقبل أن أدرك أنه من غير المحتمل وجود «فتيات» أو «فتيان» هناك أيضًا.

بصفتي بالغًا، قد أفصح عن هذا بطريقة مختلفة قليلاً. حيث أودّ أن أسال:

هل الوعي مصادفة كونية؟

لقد تساءلنا سابقًا عمّا إذا كانت الحياة على الأرض فريدة من نوعها، ولا مثيل لها مطلقًا في الكون، أو عمّا إذا كانت تمثّل ظاهرة كونية أكثر عمومية، كما هي الحال ضمن ما هو «عادي»، ولذلك تعتبر سمة من سمات طبيعة الكون، بما يتفق مع شروط الحياة الضّرورية - مثل الذّرات والنجوم والكواكب.

لكن الوعي؟ هل من الممكن أن يكون الوعي منتشرًا أيضًا في جميع أنحاء الكون؟ إذا صحّ هذا، فيجب أيضًا اعتبار هذه الظاهرة إحدى الخصائص الأساسية للكون - مثلما صرّح رائد الفضاء الأمريكي باقتناع لا لبس فيه.

أم أن محيط الأرض الحيوي كان وحيدًا تمامًا في القدرة على منح الحياة لكائنات واعية مثلنا؟

الجواب المختصر هو: نحن لا نعرف. بيد أنه ليس سؤالًا سيئًا، لأن الوعي إما اندلع مرارًا وتكرارًا في الزمكان الكوني، أو أن هذا لم يحدث. أكتب «اندلع» لأن المقدار المطلوب من التاريخ التّطوري، منذ بضعة ملايين من السنين، ما زال نافذة متواضعة جدًا في النطاق الكوني. إنها لا تتجاوز ستة ملايين سنة منذ أن انفصل الجنس البشري عن مسار الشمبانزي التطوري.

ماذا نعني بالوعي على أي حال؟

يمكن أن تمتلك حشرة ما أو إحدى ذوات القشريات نظامًا حسيًا فعّالًا. وهذا لن أطلق عليه اسم «الوعي». ما زلت أرى أن النحلة الطنانة أو الكركند قادران على الشعور بأنهما «موجودان»، أن النحلة تطنّ من زهرة إلى زهرة، أو أن الكركند يزحف في قاع البحر الصخري، بمعنى آخر، أنهما موجودان على قيد الحياة.

لكنهما بالتأكيد غير «واعيين» بهذه الأحاسيس الجسدية. ومع ذلك: من الغريب تخيّلنا أن الطبيعة - العشب أو الأشجار أو قاع البحر - يمكن أن تكون متململة أو مرهفة الحسّ، بغضّ النّظر عن مدى «لا وعيها».

الكلاب لديها وعي بلا شكّ. والخيول أيضا. وأتوقّع أن الأمر نفسه ينطبق على طائر القرقف الكبير أو السّنجاب، في الوقت نفسه أجد شيئًا من الصعوبة في تخيل أن الضفادع أو السّمك لديها أي حياة داخلية حقيقية نستطيع التّحدث عنها. (على الرغم من أن لديها جهازًا عصبيًا. لذا فهي تشعر بالألم، والمعاناة على الأرجح).

تمتلك الكلاب والخيول أيضًا أفكارًا وتصوّرات واعية - وإن كانت عفوية - وقد نتساءل كيف هي الحال أن نكون في داخل رأس حيوان. يمكن أن تشعر الكلاب والخيول بالخوف أو السعادة، وربما بالحزن والخسارة. ولكن هل «أفكار الكلب» مختلفة كثيرًا عن «أفكار الحصان»؟ أو هل من المحتمل أن الفروق الفردية - بين الكلاب على سبيل المثال - كبيرة مثل الاختلافات الهيكلية بين الأنواع المختلفة من الثّدييات الأعلى؟ أنا لا أعرف. تمتلك الكلاب على الأقل حاسّة شمّ أفضل بكثير من الخيول، وذلك يمنحها «رسمًا بيانيًا» متقدّمًا

للتنقل به، وهي قدرة تأتي على رأس ذكائها الطبيعي.

يمكن مناقشة درجة «الوعي الذاتي» لدى الحيوانات المختلفة بمزيد من التفصيل - والدراسة أيضًا! - إنما بخلافنا نحن البشر، لا يوجد سوى عدد قليل من الأنواع الأخرى التي يبدو واضحًا أنها واعية بنفسها، على سبيل المثال، حينما تواجه انعكاسها في المرآة. هناك قرود ودلافين وفيلة وغربان اجتازت اختبارات المرآة هذه، ما يبين بوضوح أن لديها وعيًا ذاتيًا.

إذا رأى طائر العقعق بقعة بيضاء على انعكاسه الذي يراه في المرآة، سيدرك أنها موجودة على جسمه، وسيحاول التخلّص منها أو فركها. هناك طيور وحيوانات أخرى سترى انعكاس صورتها، وستهاجمها ببساطة أو تقلّدها، ولن تدرك أنها تنظر إلى نفسها.

ومع ذلك، فإن القفزة من الوعي الحيواني إلى وعي الإنسان هائلة. نحن البشر لا نتعامل فقط مع أنفسنا ومع عائلتنا المباشرة وبيئتنا. يتميّز وعينا بقدرة أكبر بكثير، وهو يتيح لنا الاعتراف بالكون بأسره الذي نعيش فيه. إنه شيء فريد بالنسبة إلينا، من وجهة نظري على الأقلّ.

منذ طفولتي لطالما دهشت من أن لدى البشر وعيًا، يمكننا بطريقة

ما أن نسميه «كاملًا». ما يعني أننا حاضرون تمامًا.

نمتلك قدرة فريدة على إدراك أنفسنا بأننا خارج بقية العالم الطبيعي. نحن لسنا محبوسين في دماغ كلب. ولا نتجول متخبّطين على غير هدى، كما قد نفعل أحيانًا عندما نكون نائمين (سواء كنا نمشي أثناء النوم أو نحلم أننا نفعل ذلك).

في هذا الصّدد، أشعر بالحرج نوعًا ما من الاعتقاد بأن حلمي عن «قارئ الأفكار» قد خدعني. كان يجب أن أكون أكثر انتباهًا، وأكثر تشكيكًا، وبالتالي أدرك حينها أن لقائي مع الرجل الطويل ليس إلّا مجرّد حلم. لكن تذكّر هذا سيكون أكثر إحراجًا لو أنني خُدعت وأنا مستيقظ، وأنني في الواقع لم أقابل ذلك الرّجل مطلقًا.

لعلي ساذج، بيد أنني أعتقد أن العالم هو الطريقة التي نختبره بها. نحن لا نمضي والشعور بالحيرة المستمرّة يطغى علينا. لدينا جهاز حسي ووعي وصلا للتو إلى هنا - ثم تجاوزا قليلاً فقط خطّ النهاية. أم يجب أن أكتب أصبحا «فوق السطح»؟ أرى أننا حصلنا على نظرة عامة كافية للعالم الذي نعيش فيه. لقد انتهت بنا الحال إلى ذكاء قد يبدو مناسبًا تمامًا لاختبار الكون، على الرغم من أننا ما زلنا في حيرة من غموضه.

ما زال هناك قدر كبير لا نفهمه، وحتى أنتم الذين أكتب

إليكم الآن، ستعرفون يومًا ما المزيد عن العالم أكثر مما نعرفه الآن، أما «لغز الكون» الفعلي فمن المحتمل أن يظلّ من دون حلّ.

أنا لا أعتقد أننا عرضة لأن ننخدع بحواسنا، ولا بما نملكه من ذكاء، أو بالتقاليد العلمية والموارد الفكرية المشتركة. بل أعتقد أن رؤوسنا محكمة الشّد بشكل صحيح.

لم نعُد ننخدع بالشمس وهي تشرق فوق أفق الكوكب إلى الشرق. يمكن أن تكون لدينا فكرتان في رؤوسنا في الوقت نفسه ونستمتع بشروق الشمس على حقيقته - شروق الشمس - مع البقاء مدركين أيّما إدراك أن الأرض تدور حول الشمس وليس العكس.

أجد أنه من المدهش الاعتقاد بأن لدينا وعيًا لا يشمل الكون كله فحسب، بل إنه قادر أيضًا على تتبّع تطوره تقريبًا وصولاً إلى الانفجار العظيم قبل 13.8 مليار سنة. فقط في جزء من الثانية بعد الانفجار، يوجد عائق لا يمكن التغلّب عليه أمام قدراتنا الاستيعابية.

لذلك لا يمكننا أن نسأل عما كان «قبل» الانفجار العظيم. على الأقلّ لا يمكننا توقّع إجابة. هذه هي اللحظة التي نشأ فيها الزمان والمكان. من ناحية أخرى، لا يمكننا التأكّد من أن الانفجار العظيم كان هو نفسه بداية كل الأشياء، على الرغم

من أن بعض البشر يعتقدون أنه «لحظة الخلق». غير أنه من المحتمل أن يكون الانفجار العظيم استمرارًا صارمًا من حالة إلى أخرى.

لا بأس هذا يكفي. تكفي هذه التساؤلات المُغرقة في التّطرف.

عندما يطوف ذهني لفترات طويلة، ينحو بي التفكير أحيانًا إلى التأمّل في قضايا هائلة مماثلة. قد أتخيّل أن الكون قد طور وعيه الخاص. وعيه بالبشر أعني. ولعله يملك وعيًا بكائنات أخرى أيضًا، في أجرام سماوية مختلفة كليًا. مكتبة سُر مَن قرأ

أنا أعبّر عن هذا بشكل مطوّل إلى حدّ ما، لأنني قابلت علماء يجعّدون أنوفهم إزاء تعبيرات مثل «الكون طوّر وعيه الخاص». قد يكون هذا بسبب نزوعهم إلى وتفسيرهم بطريقة أو بأخرى ما يُقال على نحو مختلف جدًا، مثل أن «نيّة» الكون أو «هدفه» هي أن يستيقظ في النهاية من نوع من السّبات الكوني ويصبح واعيًا. غير أن هذا ليس ما أعنيه.

الكون لديه وعي. حتى لو أنني أعني بذلك هنا، في داخلنا. إنها حقيقة. وهو شيء رائع وبديع، وسبب في رأيي لفتح زجاجة شمبانيا.

أو كما كتبت مرّة: «العين التي تمسح الكون هي عين الكون

نفسها». أو كما كتبت أيضًا: «إنه التهليل بالانفجار العظيم الذي لم يُسمع إلّا بعد خمسة عشر مليون سنة من الانفجار».

لأنني بالتأكيد لا أعتقد أن الكون يمتلك أي «طاقة روحية» فطرية إلّا بعد وجود كائنات حيّة فيه. علاوة على ذلك، ليس لدي رأي حول ما إذا كانت عملية ضرورية أو لا مفرّ منها، أو ما إذا كانت قد حدثت، نتيجة ردّ فعل عكسي، خلافًا لكل التّوقعات.

السؤال هو هل ثمة «وعي كوني» مماثل قد تطور إلى حدّ ما بالتوازي مع هذا الوعي في أي مكان آخر في الكون. لا أجد صعوبة في تخيّل ذلك. لقد لاحظنا أنه لا يوجد «سطح كوني للحاضر». لكن ربما يكون هناك «سطح إدراك» كوني. أعتقد أن وجهات النّظر العلمية الأخرى للعالم، (إلى درجة ما) مماثلة لتلك التي تفهمها حضارتنا، وربما تطوّرت عدّة مرات في الزمكان للكون. إنه سؤال مفتوح وأنا لا أعرف الإجابة. ولكن بالنّظر إلى أهميته الكونية، سيبدو من الغريب أن تكون نظرية الانفجار العظيم خاصية بشرية حصرية - هذا في حال كانت النظرية واستنتاجاتها صحيحة. عندئذ، يجب أن ينطبق الشيء نفسه على الجدول الدوري، لأن الذّرات والجسيمات الأولية هي ظاهرة كونية أيضًا.

ربما لا نكون نحن البشر فريدين بالقدر الذي نودّ أن نؤمن به. لم يمض وقت طويل منذ أن أخذنا ذلك كأمر مسلم به وهو أن كوكب الأرض - ونحن البشر - في مركز الكون.

لقد تطرّقتُ إلى هذا بالفعل، يا أحبابي، غير أنني سأذكر ذلك بكلّ سرور مرّة أخرى: ليس من المستحيل، وربما ليس مستبعدًا، أنه في مرحلة ما خلال حياتكم ستحصل البشرية على تأكيد بوجود حياة ذكية في مكان آخر من الكون. لأن علم الفلك الراديوي أصبح أكثر تقدمًا، والبحث عن ذكاء خارج كوكب الأرض مستمر. مجرد التفكير في هذا يمكن أن يجعل جدّكم متحمسًا جدًا.

بخصوص هذا الشّأن، ربما ينبغي أن أضيف أن فكرة وجود الذّكاء خارج الأرض يجب ألّا تكون بالضرورة شيئًا نتطلّع إليه. هناك الكثير من الأفلام التي تحذّرنا من ذلك بالضبط. أو كما قال «ستيفن هوكينج» ذات مرة: «ما علينا سوى النّظر إلى أنفسنا لنرى كيف يمكن أن تتطوّر الحياة الذكية في شيء لن نرغب في أن نلتقي به.»

لكنني أعتقد أنه من المحبط للغاية اضطرارنا في نهاية المطاف إلى قبول أننا نحن البشر - نحن أبناء وبنات الإنسان العاقل - أننا ربما نكون الوحيدين الذين نتشارك شيئًا رائعًا مثل الفهم

الكوني. وإذا كان الأمر كذلك، أعتقد أن هذا يجعلنا في منتهى العُري والضعف، أعني، في حال تبيّن أن ملكة المنطق لدينا هي سمة متوطنة فينا، تقتصر على زاوية عشوائية من الفضاء. حينئذٍ وببساطة سيكون من قبيل المبالغة أن نتحمّل المسؤولية عنها وحدنا. فنحن لا نستطيع تحمّل مسؤولية حصرية عن شيء ضخم وفريد من نوعه مثل وعي الكون بأسره. أنا بكل بساطة لا يمكن أن أشعر بالسعادة لأننا ربما نجلس وحدنا مع كلّ بيض الكون الذّهبي في سلّة صغيرة.

على أي حال، ثمة زمن محدود لدينا هنا، قبل أن تتحوّل الشمس إلى عملاق أحمر، وتبدأ بنهم في التهام الكواكب المحيطة بها.

على المستوى الكوني، أرى أن الحياة منتشرة أكثر بكثير من الوعي. الحياة مطلب ضروري للوعي، بيد أنها ليست بأي حال ضمانة له. وقد استغرق الأمر أيضًا وقتًا طويلاً قبل وجود أي حياة أخرى على الأرض غير الكائنات الحيّة البسيطة، وحيدة الخلية.

قبل نصف مليار سنة، جرى على قدم وساق تطوّر الكائنات الحيّة ذات الأنظمة الحسّية المتقدّمة، والأنظمة العصبية المتطورة

بشكل غني، ثم في النهاية ظهور شكل من أشكال الوعي. أخذ هذا مجراه بسرعة محض، أو هو «سباق تسلّح» حقيقي في الكفاح من أجل البقاء، أو بشكل أكثر دقّة سباق بيولوجي يتماشى مع نظرية التّطور لداروين: عندما تُنشأ مستعمرات من الحيوانات متعدّدة الخلايا، ستحدث الاختلافات الحتمية بين النسل، وكذلك القوة الدافعة في تطوير ميزات جديدة، مثل الأجهزة الحسية الأكثر تقدمًا، وهذه تكون هي الانتقاء الطبيعي.

ليس من المستبعد أن تتضمن نظرية التّطور لداروين بعض المصداقية العالمية، لأنها ببساطة بديهية جدًا: ما ينجم عن المتغيّرات التي تسود في الكفاح من أجل الوجود هو ما يتيح استمرار العيش وإنتاج ذرية خصبة.

طبعًا، ليس لدينا أي علم بوجود أي حياة في أي مكان آخر في الكون، وبغياب أي دليل، هي في المقام الأول مسألة خاضعة للاحتمال. وأعداد الكون كبيرة. لكن إذا استطعنا أن نتخيّل أن الحياة بأشكالها ونماذجها المختلفة هي في الواقع ظاهرة منتشرة، فإلى أي مدى يمكن أن نتوقّع أيضًا العثور على كائنات واعية؟

أو بعبارة أخرى: ما هو الأرجح: 1) أن الكائنات الحيّة تنشأ

من الطبيعة الجيولوجية، أو 2) أن الوعي ينشأ في مرحلة ما بين الكائنات الحيّة؟

قد تبدو المشكلة الأخيرة (2) تخمينية بحت، مثل محاولة حساب إمكانية وجود حياة في الكون، أي الطرح (1). لأننا بطبيعة الحال لا نملك دليلًا عمليًا لأي منهما، أليس كذلك؟

ربما نستطيع إلقاء نظرة على بعض التجارب التي نمتلكها من الأرض، حيث تبيّن أن الوعي هو مرارًا وتكرارًا ظاهرة شائعة أو «شمولية». وأكثر الأجهزة العصبية تنوّعًا ظهرت وتطوّرت بشكل مستقلّ بعضها عن بعض.

تمتلك بعض الغربان ذاكرة وقدرة على التخطيط المدروس وحلّ المشكلات التي يمكن مقارنتها، على سبيل المثال، بالمهارات البشرية ؛ غير أن هذه سمات تنموية موازية نشأت بشكل مستقلّ تمامًا على مدار بضع مئات الملايين من السنين. هذا هو الزمن الذي يجب أن نذهب فيه إلى الشجرة التطورية لنجد نقطة تفرّع مشتركة للطيور والثّدييات. أي علينا العودة إلى زمن الزواحف الأولى، التي امتلكت القليل جدًا من الوعي أو الذكاء. ما يعني أن أدمغة الثّدييات مبنية بطريقة مختلفة كليًا عن أدمغة الطيور.

وأكبر من ذلك هو المسافة التطورية – والقفزة الزمنية – بين

الثّدييات والرّخويات. يدرس علم الأعصاب خلايا الأخطبوط العصبية لفهم الخلايا العصبية البشرية والوعي بطريقة أفضل، على الرغم من حقيقة أن جهاز الأخطبوط العصبي مبني بطريقة مختلفة تمامًا عن الجهاز العصبي للثّدييات والفقاريات الأخرى. فقد تشكل بطريقة جدّ مختلفة، أو نشأ بطريقة مختلفة.

يشبه الأخطبوط بقلوبه الثلاثة، وأذرعه الثمانية، وأدمغته التسعة كائنًا فضائيًا أكثر من أي شيء آخر (كما ورد!). هذا الرّخوي المذهل لديه دماغ منفصل لكل من أذرعه الثمانية إضافة إلى الدّماغ المركزي في رأسه. وهذه الأدمغة التسعة تشبه الشبكة العصبية، ما يعني أنها قادرة على تبادل المعلومات.

نعم! أعطوني أي كوكب مزدهر، يعجّ بالكائنات الحيّة بجميع الأشكال والألوان، وسنجد فيه أيضًا أشكالًا أخرى من الوعي.

بخلاف مجموعة كاملة من الأسئلة التفصيلية، يواجه العلم الطبيعي اليوم لغزين هائلين، وهما ماذا حدث في الكون في أول جزء من الثانية – وما هي طبيعة الوعي. نحن لا نملك سببًا للاعتقاد بوجود أي صلة بين ما هما ربّما أضخم لغزين على الإطلاق. وفي الوقت نفسه لا يمكننا استبعاد وجود صلة بينهما أيضًا.

أسئلة في أوانها

إذا كان هناك شيء واحد تعلّمته من الحياة، فهو أن البشر هم بشر، هم بشر. تحت ما هو طبقة رقيقة من الاختلافات الثقافية، نحن لا نفكّر دائمًا بطريقة مختلفة. لدينا الكثير من الاحتياجات نفسها، وغالبًا ما نشعر بالقلق من الأسئلة الفلسفية نفسها. وعادة ما تُقسم هذه الأسئلة إلى فئتين مختلفتين.

تتكون إحدى هاتين الفئتين من الأسئلة التي من المرجح أن لها إجابات، هذا على الرغم من أنها قد تكون إجابات لا يمكننا الوصول إليها. لقد طرحنا بعض هذه الأسئلة فعلًا: ما هو الانفجار العظيم؟ ما هي طبيعة الكون؟ هل حقيقة وجود كائنات واعية هنا ليست أكثر من مجرّد صدفة؟ هل من الممكن أن يكون نوع من الوعي الكوني قد تطوّر في عدة مواقع أخرى في الكون؟ هل هذا الوعي هو نفسه في جميع أنحاء الكون، أم يمكن أن توجد كائنات حيّة في الفضاء قادرة على فهم أسرار الكون أكثر مما نفهمها؟

ولكن ما الهدف من طرح مثل هذه الأسئلة ما دامت الإجابات، على أي حال، بعيدة عن متناول أيدينا؟ في الأيام

الخوالي اعتدنا على أن نقول إن الأمر عديم الجدوى مثل مناقشة الجانب البعيد من القمر.

نظرًا إلى أن القمر لديه ما يسمى بالدوران المأسور - ويواجه الأرض دائمًا بالسطح نفسه - فقد ظل الجزء الخلفي من القمر مخفيًا عن البشرية. ولكن في كانون الثاني 1968، دارت مركبة الفضاء أبولو 8 حول القمر وعلى متنها ثلاثة رواد فضاء، ومنذ ذلك اليوم لم يعد الجانب البعيد من القمر سرًا. (كي ألتزم جانب الدّقة، يجب أن أذكر أن المسبار السوفيتي لونا 3 التقط حقًا الصور الأولى للجزء الخلفي من القمر في عام 1959.)

السؤال عن الجانب البعيد من القمر ليس فريدًا من نوعه. فلطالما اكتنف التاريخ أسرارًا عظيمة حُلّت الآن:

كيف تبدو الحال في القطب الجنوبي؟ لماذا جبال الهيمالايا عالية جدًا؟ لماذا تبدو سواحل القارات الأمريكية الشرقية وكأنها قطع أحجية تتناسب مع سواحل أوروبا وأفريقيا الغربية؟ ما الذي يسبب الانفجارات البركانية؟ لماذا الشمس حارّة؟ كيف نشأت النّجوم؟ وماذا يحدث عندما تموت النجوم؟ ما هو المذنَّب؟ هل توجد كواكب خارج نظامنا الشمسي؟ كم عمر كوكب الأرض؟ من أين تأتي الذّرات، وما هي مكوّناتها؟ ما هي الحياة؟ كيف نشأت جميع الأنواع النباتية والحيوانية؟ ما

هي الوراثة؟ كيف نشأ البشر؟ لماذا نمرض؟ كيف يحدث الوباء؟

ذات مرة كانت هذه بعض الألغاز العظيمة بالنسبة إلى البشرية، أما اليوم فيمكننا تقديم إجابات واضحة إلى حدّ ما لكل منها. أجد أنه من المدهش مقدار ما نعرفه عن العالم الآن، أكثر مما كنّا نعرفه قبل مئة عام فقط.

كان الشرط الأساسي في هذه الحالات كلّها هو وجود الأشخاص الذين لم يخشوا تخيّل «الجانب البعيد من القمر». اليوم، تطرأ في أذهان الناس أسئلة مختلفة أيّما اختلاف، وخلال هذا القرن، ستردم البصيرة العديد من هذه الفجوات في الفهم البشري.

تتكوّن الفئة الأخرى من الأسئلة من قضايا فلسفية ليس لها إجابات نهائية، ولن تكون كذلك أبدًا، ولكنها مع ذلك قد تبقى حاسمة بالنسبة إلى الناس للتفكير مليًا في:

ما هي الحياة الطّيبة؟ ما هو المجتمع العادل؟ ما هو الحبّ؟ أو الصداقة؟ أيمكن أن نحبّ شخصين في الوقت نفسه؟ ما المسؤولية التي أتحمّلها تجاه رفاقي من البشر؟ هل الناس كلّهم متساوون في الأهمية؟ ما يجعلنا نفكّر أن شيئًا ما جميل، وما يجعلنا نفكّر أن شيئًا ما قبيح؟ ما هو التسامح ومتى يكون من

المناسب أن نسامح شخصًا ما؟

قد تفتقر مثل هذه الأسئلة إلى أي إجابات نهائية، أعني إجابات أبدية أو عالمية، ولكن لعلّه من المهم طرحها. لا يمكننا أن نتوقّع أن نعيش حياة طيبة من غير أن يسأل بعضنًا بعضًا عما يميّز المرء. لا يمكننا بناء مجتمع عادل من دون بذل أي جهد لتحديد ما هو المجتمع العادل. ومن غير المحتمل أن نستفيد كثيرًا من المواعدة عبر الإنترنت إلّا بعد أن نفكّر في ماهية الحب حقًا.

هناك شيء يُسمى الحظ. لكن هناك أيضًا شيء يُسمى فنّ الحياة. نحن مسؤولون إلى درجة ما عن حياتنا.

عندما ذهبتُ إلى المدرسة، في المرحلة الابتدائية والثانوية وما كنّا نسميه في ذلك الوقت صالة للألعاب الرياضية أو حتى المدرسة التحضيرية، كان التدريس يسترشد في بعض الأحيان بما يسميه المعلّم «الأخلاق»، وغالبًا ما تتحوّل هذه الدروس إلى مناقشات طويلة بين طلاب الفصل. لكن بقدر ما أتذكّر، اهتمّت في معظم الأحيان بأشياء لا ينبغي علينا القيام بها - مثل إيذاء الآخرين أو الإساءة إليهم أو الإضرار بهم.

هل نستطيع، على سبيل المثال، قبول كذبة بيضاء تُقال

إذا كان ذلك للحؤول دون تعريض زميل من البشر للحزن أو القلق، أو هل ينبغي لنا دائمًا قول الحقيقة؟ قرأنا أيضًا مسرحية هنريك إبسن «البطّة البرية»، وناقشنا ما إذا كان من الصواب لـ «غريغوش فيرله» أن يقول الحقيقة الكاملة لـ «هيلمار إيكدال».

قد تدور المناقشات الطويلة في الفصل أيضًا حول مشكلات غير واقعية تمامًا: تخيّل أنك في معسكر اعتقال حيث يكون هناك مئة شخص على وشك إعدامهم رميًا بالرصاص - بيد أن إرداء خمسين معتقلًا سيكون كافيًا إذا وافقتَ على تنفيذ تلك الفظاعة بنفسك. فما هو الخيار الذي يمكن تبريره أكثر من الناحية الأخلاقية؟

لا أستطيع أبدًا أن أتذكّر مدرّسًا يسألنا: ما الشيء الذي تريد الاستفادة به من هذه الحياة الوحيدة؟ هذه المرّة الوحيدة التي تكون فيها هنا في العالم؟ أهناك شيء مميز ترغب في تحقيقه؟ أو مشكلة معينة قد ترغب في المساعدة بحلّها؟ ما هو أروع شيء يمكن أن تتخيّل نفسك تفعله؟ اجلس في مجموعات وتحدّث عما تعتقد أنه سيكون حياة طيبة. لا تتردّد، اكتب على الأقل ثلاثة أهداف غير مقيّدة للحياة التي تودّ أن تعيشها!

لم نتعلّم أن نتحمّل مسؤولية سعادتنا. لقد نشأتُ في دولة بروتستانتية نموذجية، وتسودها أيضًا مُثل الحركة العمالية العليا.

كانت تنصّ على ثقافة التواضع والبساطة والتضامن، وكلها فضائل مهمة. ثم إضافة إلى ذلك جاء ما يُسمى بـ «قانون جانتي»: يجب ألّا تعتقد أنك شيء مميز ... يجب ألا تعتقد أنك جيّد مثلنا ... يجب ألا تعتقد أنك أكثر ذكاءً منّا...

كان من غير اللائق أن يضع المرء لنفسه طموحات عالية. لم يؤخذ النّظر في مثل هذه الأمور من حيث ما هو صواب وما هو خطأ. لكن رغبة المرء في الأفضل لنفسه ليس بالضرورة أن تتعارض مع الرغبة في الأفضل للآخرين. بل على العكس تمامًا. أولئك السعداء مع أنفسهم نوعًا ما، سيجدون أنه من الأسهل أن يقدّموا شيئًا للآخرين، أكثر من الأشخاص الذين أفسدوا حياتهم وأصبح لديهم ما يكفي من مشاكلهم الخاصة.

في ثقافتنا، لم يقتصر الأمر على اليونانيون القدماء بشكل خاص ليتساءلوا ما الذي يجعل الإنسان سعيدًا - أو ما هي الحياة الطيبة. أنا أعتقد أنه سؤال يجب على الجميع طرحه على أنفسهم.

بلا شكّ، نحن قادرون على إيذاء بعضنا بعضًا. يمكننا أن ندوس على أصابع أقدام الآخرين، لمجرد أننا نعيش متجاورين، أو حتى وأحدنا يهتم بأمر الآخر. غير أنني أعتقد أن معظمنا أكثر عرضة لخطر الإضرار بأنفسنا.

لذا يا أحفادي الأعزاء، أنا في الواقع أكثر قلقًا من أن تدوسوا أنتم على أقدامكم على أن تدوسوا على أقدام أشخاص آخرين.

ينصّ قانون مدينة الهيل على ما يلي: «لا يجوز أن يزعج أحد الآخرين، يجب أن يتحلّى المرء باللطف والتهذيب، وما عدا ذلك يمكنه أن يفعل ما يحلو له».

ورد ذكر قانون مدينة الهيل الخيالية في كتاب الأطفال النرويجي عام 1955 للمؤلف ثوربيون إيغنر، حينما جاء اللصوص إلى مدينة الهيل.

هذا كلّه جيّد وحسن. لكن هناك كلمة واحدة في هذا القانون أودّ تبديلها - في الجملة الأخيرة «وما عدا ذلك يمكنه أن يفعل ما يحلو له.» لأن هذا أيضًا يجب أن يُنظر إليه على أنه واجب أخلاقي: ليس فقط يمكن أن يسمح المرء لنفسه بفعل ما يحلو له، بل يجب عليه. (طالما أنه لا يضرّ أحدًا...)

منذ سنوات عديدة تقرّر أن أمثُلَ أمام جمهور كبير ضمن ما أطلقت عليه منظّمة اللقاء «المؤتمر الفلسفي». كان من المقرّر أن يبدأ الحدث بمناقشة قصيرة، وبعد ذلك يُدعى الحضور للمشاركة.

قبل أن يبدأ البرنامج، لبثتُ أنتظر في غرفة خلف الكواليس مع المضيفة، وخلال الدقائق التي سبقت استدعاءنا، جلسنا

هناك ندردش عن هذا وذاك. ثم بدا فجأة على المضيفة التركيز، عاينتني بنظرة ثابتة وسألتني:

إذا كنت شخصًا متزوجًا، ثم على حين غرّة وقعت في غرام شخص آخر، ربما هو «حبّ حياتك الحقيقي»، فماذا يجب أن تفعل؟ التمسّك بالرجل الذي عشت معه بسعادة لسنوات عديدة؟ أم يجب أن تتبع قلبك وتخضع لهذا الحبّ الحقيقي؟

ظننتُ أن سؤالها مجرد جزء من إحماء ما قبل المقابلة، أو هو موضوع أتوقّع أن أُسأَلَ عنه، إمّا من المضيفة نفسها أو جمهور الحضور. في الوقت نفسه لاحظت ارتعاش زاويتي فمها، وأدركت أن سؤالها شخصي، أنه يتعلّق بحياتها، والشعور بالذنب يعذّبها ويقضّ مضجعها. وقد استغلّت هذه الفرصة لطلب النصيحة من «الفيلسوف» بينما ما زالت جالسة على انفراد معه.

ما سألت عنه هو أحد تلك الأسئلة التي ليس لها إجابة محددة، ولم أكن أعرف المرأة، ولا زوجها، ولا لظى حبّها الجديد. شعرت أيضًا بعدم الارتياح من المسؤولية التي من الواضح أنها تلقيها على عاتقي. لكن بما أننا على وشك العمل معًا قريبًا، رأيت أنني مدين لها بالإجابة.

أعتقد أنني قلت بشكل أساسي أنها إذا توصلت إلى نتيجة مفادها أنه ينبغي لها، على حدّ تعبيرها، «اتباع قلبها»

هذه المرّة، فقد لا تتمكّن من فعل الشيء نفسه عند مفترق الطرق التّالي. ثم جاء مدير المسرح مسرعًا إلينا، وانطلقنا إلى المنصّة.

قدّمت المضيفة تمهيدًا مُعدًّا جيدًا، وطرحت عددًا من القضايا التي من المحتمل أن نعود إليها، ثم أجرينا حوارًا موجزًا على المنصة قبل أن يحين دور الجمهور. قام العديد من المساعدين، المتمركزين حول القاعة، بجلب الميكروفونات باستمرار لأي فرد من الحضور رفع يده في الهواء.

سرعان ما تعرّضتُ لقصف من الأسئلة والتّعليقات، وانقسمت بالتساوي تقريبًا إلى الفئتين اللتين ذكرتهما سابقًا، ومن بين الأشياء كلّها التي كان من المتوقّع أن أجيب عليها أو أفكّر فيها، انبثق سؤال يجري بالتوازي مع السؤال الذي طرحته عليّ المضيفة خلف الكواليس.

سئلتُ عما إذا كنت أؤمن بـ «الحبّ الحقيقي».

هذا سؤال يُطرح عليَ بشكل مفاجئ في كثير من الأحيان، ولكن عند التفكير في الأمر ربما لا يكون غريباً للغاية لأنه يتعلّق بالإنسانية في أعمق حالاتها، مثل الأسئلة عن الحياة والموت تقريبًا.

أجبت نعم. وفي الوقت نفسه شدّدت على أنني لا أصدق

أن هذا «الحبّ الحقيقي» هو شيء يتعثّر به المرء أو يقع أسيرًا في حباله فجأة. الأمر ليس مثل الفوز في اليانصيب، أو مثل شيء يسقط من السماء، جاهز الصنع كما هي الحال في القصص الخيالية.

مثلما هو الأمر في جميع العلاقات الشخصية بين الأفراد، الحبّ عملية يجب أن نغذي بها أنفسنا. نحن، إلى حدّ ما، مسؤولون عن حياتنا العاطفية أيضًا. (من السّهل جدًا أن أقول هذا، أعلم. غير أنني لم أخبرهم بذلك).

سيواجه العديد من المؤلفين سؤالًا ذكيًا بصفة خاصة عن كتاب معين قاموا بتأليفه. وقد يتعلّق بشيء لم يفكّر فيه المؤلف في نفسه.

من ناحية أخرى، هناك بعض الأسئلة التي تتكرّر كثيرًا، بحيث يتعين على المؤلف أن يبتسم قليلاً كلما ظهرت. كان السؤال المتكرّر الذي يوجّه لي هو: لماذا البطلة في رواية «عالم صوفي» فتاة؟

لطالما وجدتُ هذا السؤال طريفًا بشكل خاص، ولم أسأم قطّ من الإجابة عليه، لأسباب ليس أقلّها أن الشخص الذي يسأل غالبًا ما تفيض في نفسه درجة من الاقتناع ببراعة السؤال، فهم

لا يفطنون إلى أنني سبق أن أجبت على السؤال. السؤال نفسه مئات المرات من قبل.

أحيانًا كنت أردّ بسؤال مضاد: ما المانع؟ أو: لماذا لا تكون فتاة؟

أو ربما أقول إنني في العام الذي سبق نشر «عالم صوفي»، كتبت «سرّ الصّبر» القصة التي تدور حول أب وابنه، وفي العام التالي كانت الشخصية الرئيسة فتاة.

لكن الأخير من هذه التفاصيل ليس وثيق الصلة بالموضوع. بطلة هذه الرواية الفلسفية يجب أن تكون فتاة. إن اسم صوفي يأتي من الكلمة اليونانية صوفيا، وتعني «الحكمة»، وهي وفقًا للتقاليد اليونانية مصطلح نسائي، ومن هنا جاءت كلمة فيلو صوفيا، والتي تعني منذ زمن أفلاطون «حبّ الحكمة».

أيضًا في تاريخ الكنيسة، وخاصة الكنيسة الأولى والكنيسة الأرثوذكسية في وقت لاحق، كان المفهوم المركزي هو «حكمة الله المقدسة» أو آيا صوفيا – كما سميت كنيسة القسطنطينية العظيمة.

الإلهة اليونانية أثينا والإلهة الرومانية مينرفا هما تجسيدان آخران للحكمة. في الاستخدام العام، قد نستعمل أحيانًا مصطلح «المرأة الحكيمة».

لكن لماذا تعتبر الحكمة مبدأ أنثويًا؟ يمكننا التخمين، وهذا ما فعلته بالضبط مع بعض الأشخاص الذين قابلتهم، سواء هنا في المنزل، أو في أي مكان آخر في العالم.

بالنسبة إلى الكثير من النساء، يمكن النّظر إلى محاولة فهم شيء ما، وهو ما تدور حوله الفلسفة طبعًا، على أنه جزء أساسي من الحياة ؛ بينما يرى بعض الرجال أن كونهم مفهومين أكثر أهمية من محاولتهم فهم شيء ما – وهذا شيء يمكن اعتباره معاكسًا للسعي الفلسفي.

غير أنه قد يحدث في مناسبة عرضية أن يتبع شخص ما هذا الطرح بسؤال مشروع: لماذا إذًا كان أغلب الفلاسفة رجالًا؟

في الواقع ظهر العديد من الفلاسفة النساء عبر التاريخ. لم يمنحن الكثير من الاهتمام بسبب قرونٍ من الثّقافة الذكورية. لقد اضطهدت النساء كجنس، ونتيجة لذلك اضطهدن بصفتهن كائنات فكرية أيضًا. منذ وقت ليس ببعيد، مُنعت النساء من ارتياد الجامعة. وهنا في النرويج، لم تستطع النساء الالتحاق بجامعة أوسلو إلّا بعد صدور قانون في عام 1884 يسمح لهن بذلك.

ثم هناك، بالتأكيد، بعض الفلاسفة الذكور الذين كانوا أقلّ اهتمامًا بالحاجة إلى محاولة الفهم من الاهتمام بالفهم، وفي

هذه الحالة ربما يكونون قد أخفقوا في واجباتهم كـ «محترفين».

قال سقراط - الذي كان الفيلسوف النموذجي في نظر أفلاطون - إن كلّ ما يعرفه هو أنه لا يعرف شيئًا. وقال أيضًا إنه علمَ عن ملاك الحبّ «إيروس» من المرأة الحكيمة ديوتيما. والمناقضون لسقراط هم من يُطلق عليهم «السفسطائيون»، الذين كانوا ينطلقون هنا وهناك متبجحين بكلّ ما يعرفونه، والذين مقابل مبلغ مالي جيّد يمكنهم إلقاء محاضرات تعليمية طويلة.

لدينا مثال رائع على التناقض المذكور أعلاه في مشهد مسرحية «منزل الدمية» الأخير من تأليف هنريك إبسن. ما هو واضح هو مدى ضرورة أن تحاول نورا فهم زوجها، تورفالد، وفهم ما هو الزواج. يجب عليها أيضًا أن تحاول فهم نفسها ودينها وما يعنيه أن يكون المرء إنسانًا. بالقدر نفسه من الواضح جدًا أن تورفالد لا يقوم بأي محاولة مناسبة لفهم نورا أو ما الخطأ الذي حدث في الزواج. لكنه يقوم بمحاولات عديدة لجعل نفسه مفهومًا.

ما لمستُه هو أن بعض الرجال سينظرون إلى الأرضية عندما أتطرّق إلى هذه المسألة. غير أنني لا أعرف أيعود السبب إلى أنه ضغط على وتر حساس، أو أنهم على العكس من ذلك، شعروا ربما أنهم يتعرّضون لهجوم متعسّف. ولاحظتُ أيضًا أن عيون

بعض النساء تشعّ، وتصل ابتساماتهن من الأذن إلى الأذن.

عندئذ أجد من الضروري توضيح أن ليس في نيتي وصف طبيعة الرجال أو النساء. لقد قابلتُ طبعًا الكثير من النساء المدّعيات بأنهن مُلمّات بكل شيء، والمهتمات فقط بتأكيد آرائهن. وقد قابلت رجالًا كانوا باحثين مخلصين عن الحقيقة، وبعبارة أخرى «محترفي معرفة» حقيقيين.

إن الطبيعة البشرية أعمق قليلاً من هذه الاختلافات الخاضعة للمُثل بين الرجال والنساء.

*

لا بدّ من أن التباهي هو أحد أهمّ سمات الإنسان الأساسية. هذه الرغبة في أن يعجب الآخرون بالمرء، أن يروه، أن يحبّوه، وكذلك أن يتذكّروه، ينبغي اعتبار هذه السّمة طبيعية للغاية لدى الإنسان. هناك القليل من التباهي في داخلنا كلنا.

لن أقول الشيء نفسه عن الغطرسة. الغطرسة ليست سمة عامة لدى الجميع. لكنني كنت دائمًا أستمدّ قدرًا من الاستمتاع حينما أكون بصحبة مثل أولئك الأشخاص. فهم يعرضون على المرء شيئًا، يعرضون عليه نفوسهم. باعتبار أنهم

يشكّلون نقطة محورية طبيعية، في نظرهم على الأقلّ. يمكنهم تقديم عرض كامل، وغالبًا ما يجيدون سرد القصص أيضًا (عن أنفسهم).

قابلتُ في لندن ذات مرّة، أحد النّماذج الفائزة من تلك العيّنات المتأنقة. كان مؤلفًا ذائع الصّيت. التقينا في حانة مع جمع من الناشرين المحترمين، الذين تربطهم أواصر صداقة جيّدة، وانتهينا إلى الجلوس معًا حول طاولة مستديرة ضخمة، أعتقد أننا كنّا ثمانية أشخاص.

حول طاولتنا، كان المؤلف الشهير هو المركز الرئيس وحده، والقطب الوحيد للمغناطيس المستدير، وما كان ليرضى بغير ذلك، ولا الذين اجتمعوا هناك ربّما، أو في أدنى الأحوال الذين جاءوا معه.

ابتسم وضحك، ولم يبد رغبة في التحدّث عن أي شيء معين. أراد فقط أن يعبث بنا، وسرعان ما أعدّ الطُّعم.

أراد النجم المشهور أن يعرف أي شخصية شكسبيرية أحبّها كلّ واحد منّا أكثر من غيرها، وبدأ استجوابه حول مائدة العشاء بتحدي المرأة التي على يساره أولاً ؛ كان بطريقة ما يجلس عند رأس الطاولة، وذاك بدا إنجازًا كبيرًا له، بما أن

الطاولة كانت مثالية الاستدارة.

ذكر الحاضرون العديد من شخصيات شكسبير - مع مبرّرات مقنعة. أعتقد أن قاعدة هذه اللعبة نصّت على أنه لا يمكن ذكر الشّخصية نفسها مرتين، ولكن نظرًا إلى أن المجموعة كانت من ذوي الاختصاص بصناعة النشر، لم يشكّل هذا عقبة كبيرة. أنا بنفسي قلت إنني أفضل شخصية بروسبيرو من مسرحية العاصفة، التي يُعتقد أنها آخر أعمال شكسبير. بما أنه سبقت الإشارة إلى هاملت وماكبث.

ما لبثنا أن عدنا إلى حيث بدأنا، أي إلى (الوحيد) المتربع عند رأس الطاولة المستديرة. نعم (الوحيد). والسّيد العظيم يبتسم ويضحك وينظر حواليه بعيون خرزية.

إذًا من هي في الواقع الشخصية الشكسبيرية المفضلة لديه؟

أطلق ضحكة خشنة من السؤال، لا تخلو كثيرًا من السخرية، ثم قال، اسمعوا، بطريقة فيها شيء من السلطوية، أنا نفسي شاعر! فكيف يمكن أن يكون لدي شخصية شكسبيرية مُفضلة؟

لم يقل إنه شكسبير، لكنني وضعت النقاط على الحروف وفهمت ما يعنيه. لقد خُدعنا كلّنا حيث جازفنا بالخروج عن لُبّ الموضوع الذي يسعى إلى الوصول إليه.

مع ذلك سأكرّر بكل سرور أنني أجد أحيانًا مقابلة أشخاص

متغطرسين أمرًا مسليًا للغاية، وهذا الببغاء المزخرف ليس استثناءً.

نحن نعيش هنا معًا لبضع ثوانٍ كونية قصيرة، وفي الوقت نفسه يستمدّ القليل منّا أقصى درجات المتعة من تضخيم أنفسهم أمام الآخرين. كما لو أن الموت غير موجود. كأن النجوم ليست موجودة. كأن الفقر والعوز غير موجودين.

أجد ذلك كوميديًا. على الرغم من أن فيه لا مبالاة مؤثرة وكذلك شيئًا صبيانيًا وسخيفًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa *

ما هي أهم قيم الحياة؟ لقد وجدت أن هناك درجة من الإجماع العالمي بخصوص هذه المسألة أيضًا، وهذا ليس غريبًا كثيرًا لأن البشر هم بشر.

إذا أشرتُ إلى أن الصحة الجيدة هي قيمة أساسية، فسوف يهزّ العالم رأسه موافقًا، والصحة الجيدة هي بلا شكّ مطلب لكلّ قيمة حياة أخرى. الطعام على المائدة والأسرة والأصدقاء - كلنا نهزّ رؤوسنا موافقين. وأولئك الذين تحدثت إليهم أكّدوا أن وجود صديق / صديقة وحياة عاطفية من الأمور المهمّة

لمعظمنا. وهذا حصد المزيد من هزّ الرؤوس الموافقة، بل حتى ابتسامات دافئة.

لكن لحظة أقترح أن اختبار الطبيعة أو الطبيعة البكر هي قيمة أساسية للحياة، ينهار هذا الإجماع القوي. وسأجد من يقاطعني بقوله: «أوه... أتظنّ ذلك؟ هذا مثير للاهتمام ...» عندئذ سيخطر لي أنني نرويجي. لذلك لا أتمادى دائمًا في التحدّث عن أعماق الغابات، ومشاهد الأراضي الطبيعية المنعشة، وتحدّيات المشي في الجبال.

لقد قابلت أشخاصًا يقولون إنهم لم يروا قطّ سماءً مرصّعة بالنجوم، أو حتى أي حيوان بري واحد ما عدا الطيور أو السناجب أو ربما أحد الغزلان في حديقة عامة. ولا يزعمون أنهم فاتتهم فرصة رؤية أي من هذه الأشياء. (أجد هذا مخيفًا جدًا، منذرًا بالسوء. هل يمكن أن تعتاد البشرية على العيش من دون الطبيعة؟)

شيء آخر نرويجي أو شمالي يظهر بوضوح هو المساواة التقريبية بين الجنسين، أو على الأقل الاعتقاد المشترك بهذا.

لم يكن من السهل دائمًا أن يكون المرء شابًا في السبعينيات، عندما حدث تغيير جذري في غضون بضع سنوات. لكن الغالبية العظمى من رجال اليوم سيقولون إن حياتهم أصبحت أكثر غنى

الآن مما كانت عليه قبل تحرير المرأة والنّضال من أجل المساواة.

مرّة أخرى، الأمر متعلّق بما هي أهم قيم حياة المرء - أهي اجتماعات مجلس إدارة لا نهاية لها، أو قضاء الوقت مع أطفاله؟

أتذكّر ذات مرّة في الثمانينيات أنني كنت أقف على درجات روضة أطفال مع أب آخر. بدا متوترًا جدًا، ثم فجأة انبرى يقول: «ربّاه! إن الأطفال يستهلكون الكثير من الوقت!»

لم أملك وقتًا لتدبّر ما قاله كثيرًا قبل أن أدلي أنا أيضًا بشيء: «إن الحياة تستغرق وقتًا»، قلت.

هل يمكن قياس قيم الحياة أو مقارنة بعضها ببعض؟ لا أرى أن الأمر بهذه السهولة. مع ذلك تساءلت أحيانًا عن الخواطر التي تجتاح المرء في هذا المجال وهو على فراش الموت.

لا أستطيع أن أتخيّل حقًا وجود الكثير من الأشخاص الذين استلقوا هناك على فراش الموت وندموا على عدم مشاهدة المزيد من البرامج التلفزيونية. لكن هذا لا يعني أنه نشاط لا قيمة له. يمكن أن تكون مشاهدة فيلم في التلفزيون ممتعة للغاية وتبعث على الاسترخاء.

لا أعرف ما إذا كان هناك كثير من الناس سيقولون إنهم نادمون على عدم قراءة المزيد من الروايات، أو الذّهاب إلى المزيد من الحفلات الموسيقية. في هذا الصدد، يمكنني بسهولة أن

أتخيّل نفسي أشعر بالندم على عدم قضاء المزيد من الوقت في التنزه في الجبال.

عندما يتعلّق الأمر بمثل هذه الأسئلة حول القيم، هناك اختلافات كبيرة بيننا. أنا شخصياً لا أستطيع أن أفهم حقًا كيف يمكن أن يكون الناس شغوفين بالبولينغ أو الجولف أو ركوب الخيل أو تربية الكلاب. لكن هذا لا يعني أنني غير قادر على رؤية أن هذه الأنشطة قد تكون جوهر الحياة بالنسبة إلى بعض الأشخاص.

ربما هناك نوع آخر من التفكير، نوع يمكن أن يتبع شخصًا ما إلى قبره: أنني على سبيل المثال لم أعاود الاتصال بصديق قديم. لم أقم بتنمية المزيد من الصداقات، أو قضاء المزيد من الوقت مع أهلي أو أطفالي. لم أسامح هذا الشخص أو ذاك. أو أنني خنت شخصًا آخر.

وأيضًا: أنني لم آخذ نفسي بجدية أكبر. أنني تركت مواهبي في حالة سبات.

أو: أنني لم أكرس المزيد من حياتي لمساعدة اللاجئين والأكثر فقرًا في العالم. أنني لم أشارك أكثر في الكفاح لصدّ هذا الجنون المدمّر للمناخ.

وهج المساء

أحبابي ، ها قد أقبل شهر حزيران ، لذا من المحتمل أن نراكم قريبًا في الكوخ معنا .

لبثتُ جالسًا في الشرفة الجديدة على كرسي حديقة وجهاز كمبيوتر محمول في حضني ، وعندما لا ألتفت إلى الكتابة ، أرنو إلى وهج المساء فوق الأفق الشمالي الغربي .

أنا الآن آخذ استراحة قصيرة ، لأن جدتكم في طريقها إلى الأعلى من الأرضية في الأسفل ، ومعها كوبان وإبريق عصير برتقال طازج ومكعبات ثلج تقعقع .

غربت الشمس منذ ساعة تقريبًا ، ومع ذلك ما زال مقياس الحرارة الذي اشتريته مؤخّرًا يشير إلى أن الحرارة تقارب عشرين درجة .

كان لرسالتي المفتوحة لكم خيط مشترك مُحكم الشّد لم أنسه ، وهو خيط سأتمسّك به إلى آخر نقطة هنا . لكن ، هناك خيط آخر غير مشدود أيضًا ، وهو ما أودّ الكشف عنه أوّلًا .

ذكرتُ في الفصل الأول تجربة طفولة ظلّت عالقة في ذهني منذ ذلك الحين ، كما لو أنها حدثت في الأمس القريب ؛ الشعور بأنني في زيارة خاطفة إلى عالم مسحور .

بعد ذلك ، مع اقترابي من نهاية فترة مراهقتي ، اختبرتُ نوعًا من التوازن ما بين شعوري بهشاشة الحياة ، الذي عانيت منه في أغلب الأحيان وأنا طفل ، وبين شعور أكثر تصالحًا مع كوني جزءًا من شيء أكبر ، شيء قد يفوقني . حدث ذلك في وقت مبكر من صباح أحد الأيام بعد رحلتي إلى الغابة حينما غفوتُ في الهواء الطلق .

فتنني مشهد دعسوقتين بلون أحمر لماع مع بقع سوداء على أجنحتهما ، وبعض العناكب المنمنمة ، لا يتعدّى حجمها ظفر إصبع صغير ، وزوجين من نمل مفرط النشاط ، من أدقّ الأنواع – ثم شعرت فجأة بشيء يفسح المجال لشعور آخر .

ما أفسح المجال لذلك الشّعور هو التّخلي عن إحكام قبضتي على نفسي ، فاستسلمت على الفور لمحيطي ، لِما كان يُطلق عليه أحيانًا في الأيام الخوالي «الطبيعة القادرة» ، وهو مصطلح يعني أن الطبيعة الحيّة كلّها تمتلك روحًا من نوع ما ، شكلًا من أشكال وحدة الوجود .

لكن لماذا هربتُ من الحضارة وطرتُ إلى الغابة؟ أكان هناك

شيء ما يُقيدني بالمدينة في الأسفل؟ شيء اختفى تقريبًا لحظة وصلتُ إلى الريف؟

أرى أنه يجدر بي أن أروي لكم جزءًا من تلك الحكاية الآن ، على الرغم من أنكم لن تحصلوا عليها كاملة ، ومن المحتمل كثيرًا أن أكذب قليلًا .

لقد قابلتُ فتاة . أعني ، تعرّفت إلى فتاة ، بل بالأحرى عرفتها جيّدًا . لا ، لا ، أنا الآن أكذب! كنت غارقًا في حبّ فتاة ، هذا أكثر دقّة . كان عمري ثمانية عشر عامًا ، وهي أصغر مني بسنة تقريبًا ، هذا حدث حينما تركت كل ما كنت أفعله ، وتغيّبت عن الفصل الدراسي بلا أدنى شعور بالذنب على الإطلاق ، وتوجهت إلى الغابة .

بيد أنه عليَ العودة قليلًا إلى الوراء . أول مرّة حطّت فيها عيناي على الفتاة ، كان عمري سبعة عشر عامًا فقط ، أصغر من ليو اليوم ، وكانت تبلغ من العمر ستة عشر عامًا ونصف فقط . لكن حتى آنذاك ، في غضون ثوانٍ ، تبيّن لي أنها هي المرأة في حياتي . إذا كان هناك شيء واحد أنا متأكّد منه ، فهو أنني فكّرت بالضبط : ها هي ، قلتُ لنفسي ، جالسة هناك . المرأة في حياتي . (كانت تجلس خلف طاولة كبيرة) .

طبعًا بدا ذلك دافعًا غريبًا ، نزوة عجيبة ، أشبه بزلة لسان داخلية ، لأنني أتحدّث عن صبية تبلغ من العمر ستة عشر عامًا ، أكبر من أورورا بسنة واحدة فقط أثناء كتابة هذا . بيد أن ذلك لم يهم ، ليس آنذاك ولا لاحقًا . لقد أدركت متيقّنًا - بعد 21 ثانية من التعرف إليها - أنها ستصبح المرأة في حياتي . (والثواني الاثنتي عشرة التي قضيتها في شراء بطاقة عضوية لـ «اتحاد الطلاب» منها بما أنها أمينة الصندوق ، أتاحت لها الاطّلاع على اسمي في الوقت نفسه .)

كانت في قمّة . . . الروعة .

لن أضيف لكم المزيد من الصفات . فخير الكلام ما قلّ ودلّ ، والكلمة اللاتينية المستخدمة لوصفها ستفي بالغرض (حينذاك كنت أدرس اللغة اللاتينية في مدرسة أوسلو الكاتدرائية : رائع ، رائعة ، روعة . . .) ، لا تترددوا في التحقّق من القاموس لمعرفة معنى الكلمة الأصلي -وهي طبعًا كلمة مستخدمة كثيرًا جدًا في اللغة الإنجليزية وغيرها من اللغات .

ويمكنني إضافة معلومة أساسية واحدة : شعرتُ ، منذ اللحظة الأولى ، كأنني أعرفها . ليس لدي أي فكرة من أين أتى هذا الشعور ، لكن شيئًا ما أخبرني أنها من الأشخاص الذين تجول في أذهانهم الأفكار نفسها التي تراودني ، على

الرغم من أنه لم يجر بيننا ما هو أكثر من تبادل شفهي قصير يتعلّق بسعر بطاقة العضوية . (وهناك أنا ، ذلك المخلوق الذي لم يؤمن بالتخاطر!)

كان اسمها سِري ، لقد التقطته بعد بضع دقائق ، لأن شخصًا ما في الغرفة ناداها به .

أصبحنا صديقين فورًا تقريبًا ، وفي العام التالي ، غدونا ننتمي إلى دائرة الأصدقاء نفسها ، التقينا بانتظام ضمن ما يتعلّق باتحاد الطلاب ، وحضرنا الحفلات وذهبنا في رحلات أكواخ عائلية - من ضمنها الكوخ في «هينغسن» . كان هذا كلّه بديعًا . مع ذلك لم يخل الأمر من جانب سلبي واحد ، بيد أنه جانب جسيم . إذ سبق أن «كانت محجوزة» كما درجنا أن نقول في تلك الأيام . بعبارة أخرى كانت ترافق شخصًا آخر ، وهو مثلها عضو في اتحاد الطلاب ذاك ، وارتاد معنا الحفلات نفسها ، وكذلك الرحلات إلى الأكواخ العائلية - بما فيها الرحلة إلى الكوخ في «هينغسن» . تخيلّوا ، أي أعصاب تلك! لم يكن بوسعي القيام بأي شيء . مع ذلك لم أستطع التّخلي عن فكرة أنني قابلت امرأة حياتي . حتى أنني فكّرت مرّة أو مرّتين أنه في يوم من الأيام ، عاجلاً أو آجلاً ، قد نكون معًا . غير أن هذا لم يخطر لي سوى مرّة أو مرّتين .

الآن لا بدّ من أنكم عرفتم من البداية أن الفتاة التي أتحدّث عنها كانت جدتكم . أعني ، هي جدتكم ، أو أصبحت جدتكم ، تلك التي خرجت إلى الشرفة قبل ساعة ومعها عصير برتقال طازج .

لن أضيف لكم المزيد عن هذه القصة الآن . لكن ما قلته لكم سيزوّدكم ببعض المعلومات الأساسية عن إجازة منتصف الأسبوع تلك ، من المدينة إلى الغابة . أردتُ أن أبقى وحدي . وفي حال انتهت القصة هناك ، بخصوص فكرتي الثابتة عن «المرأة في حياتي» ، وبهتت بين تصوراتي للغابة ، ونتيجة لذلك انجرف كلّ منّا بعيدًا عن الآخر قبل وقت طويل من تمكّننا من التواصل بشكل صحيح ، حينها ، لن أكون جالسًا في الشرفة العليا أكتب هذه الكلمات لكم الآن . وحينها لن يكون هناك أيضًا «أحبابي ليو وأوروورا ونوح وألبا وجوليا وماني» .

لن يكون هناك أبدًا أي ليو ونوح وأوروورا وألبا وجوليا وماني . والعالم سيبدو مختلفًا بعض الشيء - لأن إنسانًا أو اثنين قادران على إحداث فرق كبير - وبالنسبة إليكم أنتم السّتة ، لما كان لكم وجود على الإطلاق . فكّروا في هذا!

لعلّه من الصّعب استيعاب أنه إذا حدث واختلف شيء ما قليلًا في الماضي - كأن ، على سبيل المثال فاتت أحد الوالدين

الحافلة أو القطار - لن نكون هنا الآن . لما دخلنا إلى هذا العالم . حتمًا سيكون العالم هنا ، لكنه سيكون من دوننا .

بصورة مماثلة ، يصعب على الكثيرين منّا بالدرجة نفسها أن يستوعبوا أننا في يوم من الأيام سنتوقّف عن أن نكون موجودين في هذا العالم . والعالم سيستمر - بيد أنه سيستمر من دوننا .

إن تخيّل المرء عدم وجوده هو مهمة شبه مستحيلة ، وربما هذا فنّ لم يتمكن إلّا عدد قليل من الناس إتقانه .

أنا شخصياً لطالما فكّرت في كوني موجودًا - أي كوني موجودًا في العالم ، وفي العيش باعتباره شيئًا غريبًا يستعصي على الوصف . وما فتئتُ أحاول التعبير عن هذا بالكلمات طول حياتي ، ولا أدري ما إذا نجحت في ذلك أبدًا ، غير أن أحدًا لا يستطيع أن يقول إنني لم أحاول .

في طفولتي ، شعرتُ بخيبة أمل من الكبار المتردّدين بالاعتراف كم أنه من الغريب وجود عالم وأننا فيه . وقد أكّدوا لي دائمًا أن العالم شيء «عادي» . لكن شيئًا ما بداخلي احتج . «نعم ، من الغريب حقًا التفكير في ذلك» ، كان بإمكانهم أن يقولوا . بل حتى كان بإمكانهم الاعتراف بأن الأمر غامض نوعًا ما . أو محيّر ، أو جنوني تمامًا . . .

عندما كبرتُ ، تحسّنتُ في التعبير عن نفسي ، وربما امتهاني

للكتابة ليس إلّا انتقامي من أولئك البالغين غير المبالين . وقد أخذت وعدًا على نفسي بألا أكون أبدًا شخصًا يعتبر العالم أمرًا مفروغًا منه ، أنه من المسلّمات . وعدت نفسي بألّا «تألف العالم أبدًا» .

من ناحية أخرى رأيتُ دائمًا أنه من الصعب بالقدر نفسه وصف ما هو عكس الوجود ، أي ما كفّ عن كونه موجودًا . إننا نحن الذين هنا الآن ، هذه المرّة فقط . نحن الذين هنا الآن! ولن نعود ثانية أبدًا .

كان أول لقاء لي مع هذا التباين هو اليوم الذي اختبرت فيه العالم لأول مرّة ، وأظنّ أنه كان يوم أحد . وعيتُ على نفسي وأنا أشعر كما لو أنني في عالم مسحور ، وجاء عقابي لامتلاك هذه الرؤية الواضحة هو إدراكي أنني سأموت في يوم من الأيام . الآن اقترب ذلك اليوم قليلًا . فكّرت في الأمر منذ فترة قصيرة عندما ألقيتُ نظرة خاطفة على وهج المساء في الشمال الغربي .

أهناك أي شيء يمكن أن يعوّض عن حزن المرء لفقدان نفسه ووجوده؟ وهل هناك على الإطلاق ما يمكن أن يكفّر عن هذه الخسارة أو يتداركها؟ إنه سؤال ينطبق علينا جميعًا ، صغارًا وكبارًا ، على حدّ سواء ، وأعتقد أنه يحتوي على العديد من

الإجابات المختلفة . يمكنني فقط الإجابة عن نفسي :

لو أتيح لي الاختيار بين الموت هنا والآن ، ولكن مع اليقين من أن البشرية والتّنوع البيولوجي على هذا الكوكب سيظلان على حالهما في المستقبل المنظور ، أو لو قدّر لي أن أعيش بصحة جيدة إلى أن أتجاوز المئة عام ، حتى إن حدث هذا في كوكب مريض قاتم المستقبل - كنت ، بلا أدنى شكّ ، سأعلن وداعي لهذا العالم بلا تردّد هنا والآن . وهذا سيكون عاديًا كليًا ، ليس من منطلق التضحية أو الواجب ، بل لإنقاذ شيء في كينونتي ، شيء هو أنا ولي .

هذا الحسم لا علاقة له بالعمر أو بمرحلة الحياة التي أنا فيها ، لأنني قلتُ الشيء نفسه بالضبط منذ أكثر من ربع قرن .

الانتماء إلى الأرض هو حقّي المكتسب بالولادة . وسأحتفظ به لفترة طويلة بعد انتهاء صلاحية جنسيتي العالمية الخارجية ، وجواز سفري ، ورقم الضمان الاجتماعي .

بالنسبة لي يتعلّق الأمر بالهُوّية ومَن أنا . لأنني لست هذا الجسد الجالس في الشرفة فقط ، أكتب على جهاز كمبيوتر محمول في الظلام . بالنسبة لي ، هذا التعريف واهٍ أو سطحي للغاية ، ولا يضيف شيئًا . أعتقد أنني أمثّل شيئًا أكبر وأعظم . أنا شيء أكبر وأعظم .

كان هذا هو الخيط المشترك في رسالتي المفتوحة لكم . آمل الآن أن تتعلّموا أنتم أيضًا التماهي مع ذواتكم الأعظم ، ومع العالم نفسه الذي منحكم الحياة ، وسيبقى موئلكم لسنوات عديدة .

سيشعر الكثير منّا بالقشعريرة كلّما ذُكّرِنا بأننا لن نواصل العيش إلى الأبد ، وأننا لدينا أنفسنا فقط على سبيل الإعارة ، وأن لدينا بعضنا بعضًا على سبيل الإعارة فقط . قد يشعر بعض الأشخاص في حالات نادرة بالوهن من هذه الفكرة ، بينما بالنسبة إلى أشخاص آخرين قد تفسد شعورهم بالحياة طول عمرهم .

بالقدر نفسه أشعر بالفزع عندما أفكّر في ما يمكن أن نجترح بحقّ كوكبنا في أسوأ الأحوال .

ربما من الممكن أن تصبح مغادرة هذا العالم أسهل قليلاً لو تأكّدنا بشكل معقول من أن التّنوع البيولوجي وأساس الحياة على هذا الكوكب آمن . في الوقت الحالي ، نحن نراهن بهُوّيتنا ، بكل ما نمتلكه من عمق ، لأنه من خلال تقليص صحة الكوكب وتنوعه ، نحن أيضًا نقلّص أنفسنا .

لن أدعو نفسي متشائمًا ، فأنا كما أشرت سابقًا : التشاؤم هو

مجرد كلمة أخرى للكسل . ولا أحبّ أن أصف نفسي بالمتفائل لأن ذلك قد يعني أنني بطريقة ما أحصّن نفسي أمام حقائق الحياة .

لكن بين هذين النقيضين - نقيضان ربما هما أساسًا يتعلّقان بوصف نوع من طريقة تفكير - هناك أمل . والأمل شيء مختلف - إنه أكثر من مجرّد مسألة مزاجية . الأمل يدور حول النضال . الأمل يفترض الإيمان بما يطمح إليه المرء .

هذه هي كلماتي الأخيرة في هذه الرسالة المفتوحة لكم يا أحبابي ليو ، وأوروورا ، ونوح ، وألبا ، وجوليا وماني . لدينا أسباب كثيرة لنناضل من أجل عالم أفضل . ولدينا الكثير من الأسباب الوجيهة للإيمان بعالم أفضل .

ما رأيكم؟

بالمناسبة ، كيف تبدو الأشياء على الأرض الآن ، في نهاية القرن الحادي والعشرين؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

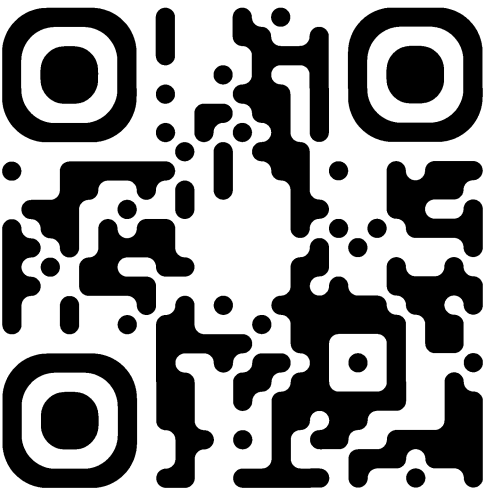

سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

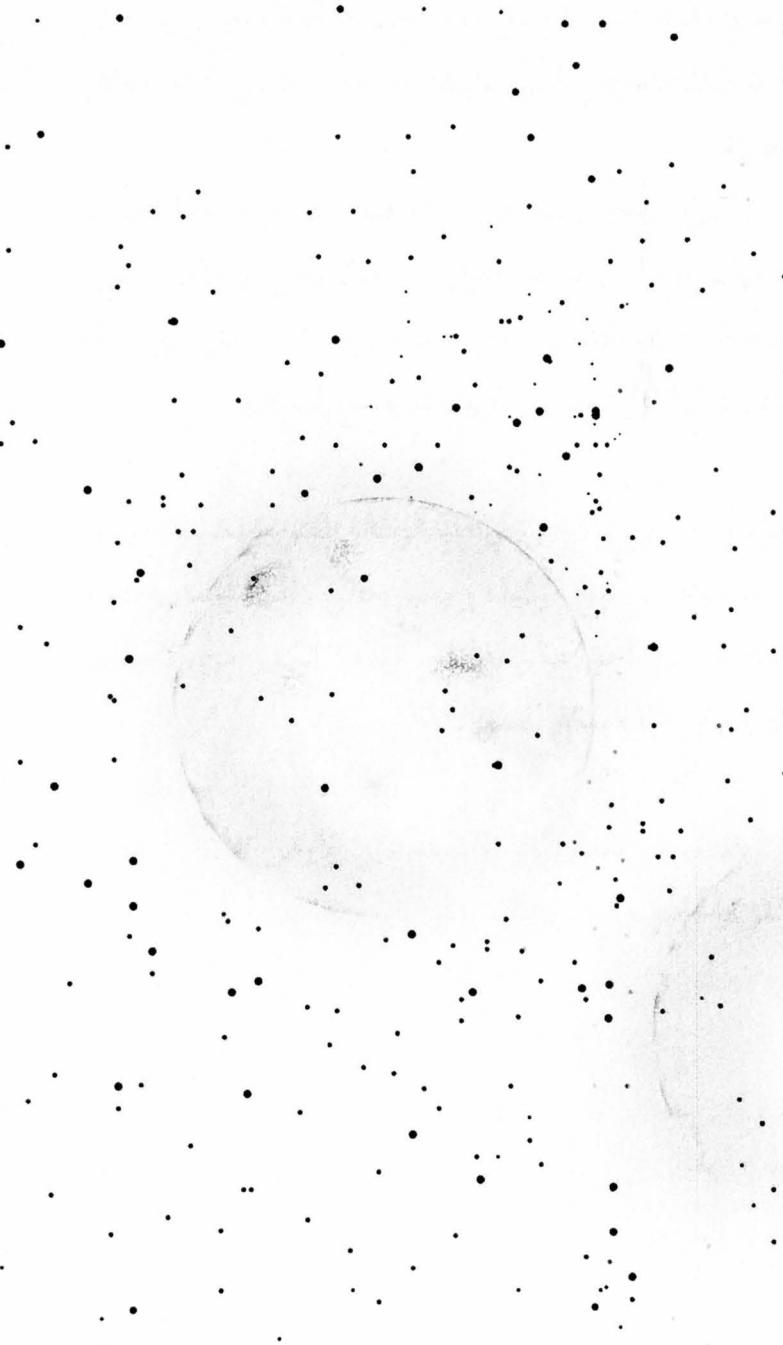

telegram @soramnqraa

«مرّة، في منتصف النهار، يوم الأحد ربما، صحوت فجأة ورأيت العالم للمرّة الأولى على الإطلاق. بدا ذلك كما لو أنني فتحت عيني على عالم السحر (...)
السحر بحدّ ذاته دام ثواني قليلة فقط، مشحونًا بكهرباء الغموض، أما شعور الصدمة الحلو فبقي في جسدي، ولم يفارقني منذ ذاك الحين.»

نحن الذين هنا الآن؛ كتاب أدبي وفلسفي وشخصي، يتوجه به الكاتب إلى أحفاده في المقام الأول، ويدعوهم، كما يدعو القارئ، إلى خوض مواضيع مختلفة تتميز بالنقاش العميق، طارقًا أبواب علوم البيئة والعلاقات الإنسانية، والدين والشيخوخة والحب والحياة والموت.
جوستاين غاردر الذي لطالما اهتم بالطبيعة والمناخ يتصدى في هذا الكتاب لأعظم وأهم التحديات التي تواجهنا: كيف سنهتم بأنفسنا، وبالآخرين، وبالكوكب الذي يؤوينا.

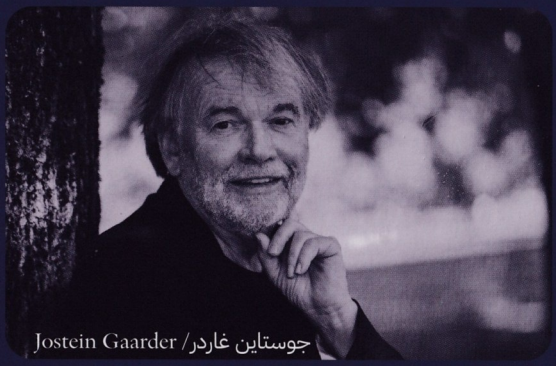
Jostein Gaarder /جوستاين غاردر

مكتبة
t.me/soramnqraa

دار المنى